التضامن بين السكان الأصليين

شهادات ونصوص

تقديم

حميد دباشي

تـحريـر

سوزانا هينتي وغاري فولي

مجـــلة 28

التضامن بين السكان الأصليين

شهادات ونصوص

التضامن بين السكان الأصليين
شهادات ونصوص

آجـــا مـــونـــيـه
أليـــكسيس رايت
إيرين واتـــــسون
ســارة م. صـــالح
روبـــرت واريـــور

ســاري زنـــانيري
سباندانا بيلاريسيتي
ســـوجيث زافيير
سيلفيا مـــكادم
طـــــوني بيرتش
عـــدنيه شـــبلي

عـــمر زهـــزه
مجد أبـو عـــامر
مـــيكايلا سحار
يـــارا نـــصّار
يـــوجـينـا فـلـن

تقديم

حميد دباشي

تـحرير

سوزانا هينتي وغاري فولي

بدعم من:

مؤسسة عبد المحسن القطان
A M QATTAN FOUNDATION

مجـــلة 28

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد مجلة 28

التضامن بين السكان الأصليين: شهادات ونصوص/ آجا مونيه... [وآخ.]؛ تحرير سوزانا هينتي وغاري فولي؛ تقديم حميد دباشي.

تحرير وتدقيق: مجد أبو عامر.

ترجمة النصوص الواردة بالإنجليزية إلى العربية: أنس سمحان.

مراجعة الترجمة: يارا نصّار.

تحرير بصري: أحمد حلمي.

لوحة الغلاف "أنت وأنا" (2021) واللوحات داخل الكتاب: ملك مطر/ فلسطين.

تنسيق ومتابعة: محمود الشاعر.

عدد الصفحات 96 ص.؛ 24 سم.

العنوان بالإنجليزية

Indigenous Solidarity

Testimonies and Narratives

by Multiple Authors

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها مجلة 28

الناشر

مجلة 28

قطاع غزة؛ فلسطين

الهاتف: 00970595885856

البريد الإلكتروني: info@28mag.ps

الموقع الإلكتروني: www.28mag.ps

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمجلة 28

الطبعة الأولى

رفح، آب/ أغسطس 2021

جدول المحتويات

المساهمون 7

مقدمة 14
سوزانا هينتي وغاري فولي

كلمة الافتتاح: ماذا تُمثّل فلسطين بالنسبة إليه أو ما الذي يُمثّله لفلسطين؟ 18
حميد دباشي

القسم الأول
سؤال التضامن في السياق الفلسطيني

تمييز التضامن وتغيير المُحاوَر: نحو إعادة التفكير في الأصلانية

فلسطينيًا وفي فلسطين أصلانيًا 23
مجد أبو عامر

فلسطين عبر الحدود: الوفود بوصفها أداة للنضال المُشترك 29
عمر زهزه

السكان الأصليون والفلسطينيون: من التضامن إلى النضال المشترك 34
يارا نصّار

أركيولوجيا التضامن بين الفلسطينيين والسكان الأصليين 40
روبرت واريور

ارم الطلاء!: كيف اخترقت إسرائيل حملة سيناء وفلسطين؟ 47
ميكايلا سحّار

القسم الثاني
شهادات وتأملات حول التضامن وإنهاء الاستعمار

الحقيقة والحرية والتضامن: تأملات في التضامن
بين الشعوب الأصلية والمستوطنين اللاجئين الملونين 54
سيلفيا مكادم وسوجيث زافيير

أحقيّة الشعوب الأبورجينية وإنهاء الاستعمار 61
إيرين واتسون

الشعوب الأولى ومُجتمعات الشتات: آثار التضامن العابر للحدود 68
يوجينا فلن

المعرفة والثقافة والمنهج: تأملات حول الاستعمار وإنهاء الاستعمار 73
ساري زنانيري

تأملات حول مؤتمر التضامن بين الفلسطينيين والسكّان الأصليين 77
سباندانا بيلاريسيتي

القسم الثالث
نصوص الملونين حول أوطانٍ بالأبيض والأسود

تضامن المُقتلعين من أرضهم 82
عدنية شبلي

مرحبًا يا أسلافي! 84
أليكسيس رايت

نحنُ 87
آجا مونيه

أرملة زائفة 91
سارة م. صالح

مسألة حيوات 94
طوني بيرتش

المساهمون

آجا مونيه

شاعرة وفنانة ومُعلمة أمريكية-كاريبية. تُقيم في ليتل هاييتي بميامي، حيث شاركت في تأسيس Smoke Signals Studio، وهو وحدة مُجتمعية مُكرّسة للموسيقى والفن والثقافة وتنظيم المُجتمع. حصلت على لقب Café Grand Slam الأسطوري من Nuyorican Poet، واعتُرِفَ عالميًا بقدرتها على التأليف، بين صوتها المذهل وصورتها الشعرية الحية على خشبة المسرح. ترشحت مجموعتها الشعرية الأولى *My Mother Was A Freedom Fighter* لجائزة NAACP Image (2018).

أليكسيس رايت

كاتبة وروائية من أمة الوانيي في المرتفعات الجنوبية لخليج كاربنتاريا. نظّمت مؤتمرين دستوريين للأبورجيين في وسط أستراليا؛ «اليوم نتحدث عن الغد» (1993)، و«كالكارينجي» (1998). تكتب على نطاق واسع عن حقوق السكان الأصليين، وأهمية رواية القصص الشفوية، وأدبيات الحكم الذاتي، وهي صاحبة كرسي Boisbouvier في الأدب الأسترالي بجامعة ملبورن، وهي المؤلّفة الوحيدة الّتي فازت بجائزتي Miles Franklin (2007)، وStella (2018)، وغيرها من الجوائز. صدرَ لها العديد من المؤلفات، منها: *Carpentaria* و*The Swan Book*، و*An Oral History of the Central Land Council*، و*Grog War: A Study of Alcohol Abuse in the Northern Territory*، و*Tracker*. نُشرت كتبها في العديد من البلدان، منها: الصين والولايات المتحدة والمملكة المتحدة وإيطاليا وفرنسا وبولندا.

إيرين واتسون

أستاذة باحثة في القانون بجامعة جنوب أستراليا، تنتمي إلى شعوب التانكينكالد والميِّنتاك من منطقة كورونك وجنوب شرق ولاية جنوب أستراليا. تُعدُ أول أبورجي حاصل على درجة البكالوريوس في القانون من جامعة أديلايد (1985)، وأول أبورجي حاصل على الدكتوراه في نفس الجامعة (2000)، وقد فازت بجائزة Bonython Law لأفضلِ أطروحة دكتوراه. عملت كأستاذة في جامعات جنوب أستراليا الثلاثة، وكانت زميلة باحثة في كلية الحقوق بجامعة سيدني. وعُيّنت في عام 2016 نائبًا لرئيس جامعة جنوب أستراليا. وشاركت كعضو ومحامية ومديرة في حركة الحقوق القانونية للأبورجيين في جنوب أستراليا منذ إنشائها (1973). كما شاركت في صياغة إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية (1990-1994)، وقدمت في عامي 2009 و2012، مداخلات أمام لجنة الخبراء الاستشارية لمجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، بشأن الوضع الحالي للشعوب الأصلية. صدرَ لها كتاب *Aboriginal Peoples, Colonialism and International Law: Raw Law* (2015)، الذي يُعدُّ أول عمل بحثي يُقيّم شرعية وتأثير الاستعمار من وجهة نظر قانون الأبورجيين، وليس من وجهة نظر التقاليد القانونية الغربية السائدة.

حميد دباشي

مؤرّخ وفيلسوف وناقد أدبي إيراني-أمريكي، وأُستاذ كرسي هاكوب كيفوركيان بقسم الدراسات الإيرانية والأدب المُقارن في جامعة كولومبيا، وأستاذ زائر في برنامج الأدب المقارن بمعهد الدوحة للدراسات العليا. حاصل على الدكتوراه المزدوجة في علم اجتماع الثقافة والدراسات الإسلامية من جامعة بنسلفانيا، تلتها زمالة ما بعد الدكتوراه من جامعة هارفرد. حاضرَ في العديد من جامعات أمريكا الشمالية وأوروبا والعالم والعربي وإيران. صدر له أكثر من أربع وعشرين كتابًا ومئات المقالات، منها **الشاهنامه: الملحمة الفارسية كأدب عالمي** (2019)، و**هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟** (2015)، و**ما بعد الاستشراق: المعرفة والقوة في زمن الإرهاب** (2009). تُرجِمَت كتبه ومقالاته إلى العديد من اللُّغات، منها العربية واليابانية والألمانية والفرنسية والإسبانية والروسية والإيطالية والكاتالونية والأردية والكورية.

روبرت واريور

أستاذ متميّز في الأدب والثقافة الأمريكية في جامعة كانساس بالولايات المتحدة، وعضو/ مواطن في أمة الأوساج Osage. مؤلف كتاب أسرار قَبَلية: استعادة التقاليد الفكرية للهنود الحمر (1995)، والناس والكلمة: قراءة قصص السكان الأصليين (2006). شارك في تأليف العديد من الكتب، منها: مثل الإعصار: الحركة الهندية من ألكتراز إلى مذبحة الركبة الجريحة (1996)، والقومية الأدبية للهنود الحمر (2008)، والتفكير الجماعي: جماعة النقاد الأصليين (2009). وهو الرئيس السابق

لجمعية الدراسات الأمريكية، والرئيس السابق المؤسس لجمعية دراسات الأمريكيين الأصليين والسكان الأصليين (2009-2010). يشارك حاليًا في تحرير مجلة دراسات الأمريكيين الأصليين والسكان الأصليين، وسلسلة الأمريكيين الأصليين الصادرة عن جامعة مينيسوتا.

سارة م. صالح

ناشطة حقوقية ومنظمة ومجتمعية، وباحثة دكتوراه في القانون، في جامعة نيو ساوث ويلز. وهي ابنة لمُهاجرين عاشا في فلسطين ومصر ولبنان. عملت لأكثر من عقد في المنظمات الأهلية والدولية في أستراليا والشرق الأوسط، وهي سفيرة للسلام في مؤسسة بانكستاون، وناشطة في شبكة المناصرة الفلسطينية-الأسترالية، وعضو في مجلس إدارة منظمة الدعوة الوطنية GetUp!. صدرَ لها مجموعة شعرية عام 2016، وهي محررة مشاركة لكتاب *Arab-Australian-Other*: Stories in Race and Identity الصادر في العام (2019). نُشرت نصوصها بالإنجليزية والعربية في العديد من المجلات، منها: *SBS Life* و*Meanjin* و*Australian Poetry Journal* و*The Dirty Thirty*.

ساري زنانيري

فنان ومؤرِّخ ثقافي، وهو حاليًا باحث ما بعد الدكتوراه في المشروع المموَّل من مؤسّسة NWO، بعنوان "CrossRoads: European Cultural Diplomacy and Arab Christians in Palestine 1918-1948"، وفي معهد هولندا للشرق الأدنى في جامعة ليدن بمؤسّسة فرانك شولتين. أكمل درجة الدكتوراه في الفنون الجميلة من جامعة موناش (2014) حيث درس التقارب بين تصوير الكتاب المُقدّس للفلسطينيين والرواية الصهيونية. تتمحوَر اهتماماته البحثية في التقاطُعات بين الاستعمار والأصلانية والسرد الديني والثقافة البصرية. شارك في تحرير مُجلَّدين مع كارين سانشيز: *Sumerer European Connection* (2021)، و*Cultural Diplomacy and Arab Christians in Palestine*: *Between Contention and Imaging and Imagining Palestine*: *Photography, Modernity and the Biblical Lens* (2021).

سباندانا بيلاريسيتي

مُقيمة على أراضي المحمية غير المتنازل عنها لشعب الوروندجيري والبونوورنغ من أمة الكولين، منذ ثماني سنوات. ولدت في ديكان بلاتو في جنوب الهند، وعاشت وتعلمت في تلك الأراضي. شاركت في تنظيم المجتمع حول العدالة البيئية، وحملات التضامن الشعبية، وجمع التبرعات المجتمعية، في إطار مناهضة الاستعمار والرأسمالية. تهتمُّ ببناء شبكات المجتمع المحلي.

سوجيث زافيير

أستاذ مشارك في كلية الحقوق بجامعة وندسور، ومحامي، وعضو جمعية الحقوق في أونتاريو. حاصل على الدكتوراه في القانون. وهو عضو تحرير مؤسس لسلسلة *Third World Approaches to International Law Review*. عمل مع المنظمات غير الحكومية الأهلية المحلية في سريلانكا، وكان متدربًا قانونيًا في مؤسسة الحق في رام الله، فلسطين. كما عمل أثناء إقامته في لاهاي مع القاضي كرمل أجيوس Carmel Agius، في غرفة الاستئناف في المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، والمحكمة الجنائية الدولية لرواندا. من القضايا البارزة التي قدمها، قضية الاتحاد العربي الكندي ضدّ كندا (وزير المواطنة والهجرة) (2013)، وقضية وزير المواطنة والهجرة ضد ألكسندر فافيلوف (2018)، وكان صديق المحكمة العليا للولايات المتحدة (2020). تقع اهتماماته البحثية في تقاطعات القانون والنظرية الاجتماعية القانونية والمجتمع العالمي والمحلي، مع التركيز على مؤسسات الحكم والمجتمعات الملونة، ومقاربات العالم الثالث للقانون الدولي، والدساتير والإدارات، والحوكمة العالمية، والعدالة الانتقالية في المجتمعات ما بعد الكولنيالية. وهومحرر مشارك لكتاب: *Decolonizing Law: Indigenous, Third World and Settler Perspectives* (2021)، وكتاب *Third World Approaches to International Law: On Praxis and the Intellectual* (2017).

سوزانا هينتي

مؤرّخة فنّية وكاتبة ومُعلِّمة، تُكملُ دراساتها العليا للحصول على درجة الدكتوراه المُشتركة من جامعة ملبورن (أستراليا) ومدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (فرنسا). عملت كأستاذة لدراسات النوع الاجتماعي وتاريخ الفن في جامعتي ملبورن وفيكتوريا. تنصبُ اهتماماتها البحثية على مُساءلة الخطابات الاستعمارية الاستيطانية من خلال التأريخ النقدي والفن المعاصر المُناهِض للاستعمار. نُشرت مقالاتها في العديد من المجلات، منها: *Radical Philosophy* و*Kunstlicht* و*The Funambulist* و*Jerusalem Quarterly* و*Index Journal*.

سيلفيا مكادم

أستاذة مساعدة في كلية الحقوق بجامعة وندسور. تنحدر من الشعوب الأصلية لأراضي المعاهدة السادسة، التي باتت تُعرف باسم «كندا»، وتنتمي إلى أمة النهياو. حاصلة على الدكتوراه في القانون من جامعة ساسكاتشوان، والبكالوريوس في العدالة الإنسانية من جامعة ريجينا. وهي مؤسِّسة مشارِكة لحركة عالمية يقودها السكان الأصليون تحت اسم «Idle No More»، التي غيّرت المشهد السياسي والاجتماعي في كندا، ووصلت إلى المجتمع العالمي للدفاع عن جميع الأراضي والمياه والحيوانات وحمايتها. وحصلت بذلك على العديد من الجوائز، منها: جائزة كارول كيلار لحقوق الإنسان، وجائزة صحيفة فورين بوليسي لأفضل 100 مفكر عالمي (2013)، وجائزة العدالة الاجتماعية، وجائزة المواطن العالمي (2014)، وجائزة ماركوليس للتصميم

الوطني من أجل الحياة. كما أنها مؤسِّسة مشارِكة لحملة «One House Many Nations»، والّتي تصمم منازل صغيرة مستدامة دون كهرباء (أو أيّة خدمات عامة)، لمعالجة النسب غير المقبولة من التشرد، والتوعية به في دولٍ غنية مثل «كندا»، خاصةً بين الشعوب الأصلية. صدرَ لها كتاب *Revitalizing nēhiyaw Legal Systems*: *Nationhood Interrupted* (2015).

طوني بيرش

مساهم دائم في إذاعة *ABC*، وضيف منتظم في معارض الكتب، وناشط في مجال العدالة المناخية. وهو مؤلف ثلاث روايات من الأكثر مبيعًا، وهي: *The White Girl*، و*Ghost River* الحائزة على جائزة رئيس الوزراء الفيكتوري الأدبية لكتابة السكان الأصليين، و *Blood* التي رُشحت لجائزة مايلز فرانكلين. صدرَ له أيضًا العديد من الكتب، منها: *Shadowboxing*، و*Father's Day*، و*The Promise*، و*Common People*.

عدنية شبلي

أستاذة مُشارِكة في قسم الفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت، فلسطين. حاصلة على الدكتوراه من جامعة شرق لندن (2009)، بأطروحة تحت عنوان «الإرهاب المرئي»، والتي استكشفت التراكيب المرئية لعددٍ من أعمال العنف الكبرى. كانت زميلة ما بعد الدكتوراه في برنامج EUME في *The Forum Transregionale Studien*، وجامعة برلين الحرة (2011-2012). عملت كأستاذة في كلية النظرية النقدية والدراسات الثقافية بجامعة نوتنغهام (2005-2009)، وباحثة زائرة في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، باريس (2008). صدر لها العديد من الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة والمقالات السردية.

عمر زهزه

باحث دكتوراه في قسم الأدب المقارن، جامعة كاليفورنيا. تتركز اهتماماته البحثية في الأدب العربي الأمريكي، والأدب الأفريقي الأمريكي، وأدب المقاومة الأمريكية، والأدب الفلسطيني، والتضامن بين السود والفلسطينيين. نشر العديد من المقالات، منها: «At Home in Diaspora: Mapping Affiliation in Syrine Hout's Postwar Anglophone Lebanese Fiction»، و«Rethinking Islamophobia, Reframing Resistance».

غاري فولي

ناشط وممثل وكاتب، وأستاذ التاريخ في جامعة فيكتوريا. تعود أصوله إلى شعوب الكمبينكر Gumbaynggirr. طُرد من المدرسة في سن الخامسة عشر، وجاء إلى سيدني كمتدرب رسم فني، وانخرط منذ ذلك الحين في أنشطة سياسية مركزية، بما في ذلك جولة مظاهرات جولة سبرينكبوك (1972)، وخيمة السفارة في كانبرا (1972)، واحتجاج ألعاب الكومنولث (1982)، والاحتجاجات خلال احتفالات الذكرى المئوية الثانية

لتأسيس أستراليا (1988). كما شارك في تأسيس أولى منظمات الأبورجيين للمساعدة الذاتية والبقاء على قيد الحياة، بما في ذلك شركة خدمات ريدفيرن Redfern القانونية للأبورجيين، ومركز خدمة الأبورجيين الصحي في ملبورن، والمسرح الوطني الأسود. وفي عام 1974 كان جزءًا من وفد الأبورجيين الذي جالَ الصين. وفي عام 1978، حمل معه أفلامًا عن أستراليا السوداء إلى مهرجان كان السينمائي. أنشأ في عام 1979 أول مركز معلومات للأبورجيين في لندن. وكان مديرًا للخدمات الصحية الفيكتورية للأبورجيين (1981)، ومجلس فنون الأبورجيين (1983-1986)، وردفيرن لخدمات الأبورجيين الصحية (1988). إضافةً إلى ذلك، كان محاضرًا أول في كلية سوينبرن، وقيِّم أول عن جنوب شرق أستراليا بمتحف ملبورن، ومستشارًا للهيئة الملكية في حالات وفاة السود في الحجز (1988)، وعضو مجلس إدارة في مكتب الخدمات القانونية للسكان الأصليين، وجزءًا من السلطة التنفيذية الوطنية للائتلاف الوطني لمنظمات السكان الأصليين. وقد أنشأ في عام 1994، أول موقع ويب يمتلكه ويديره السكان الأصليون، وهو موقع *Koori History*، والّذي لا يزال أحد أكثر وسائل التعليم الرقمية استخدامًا من قبل السكان الأصليين، كونه الأكثر شمولًا حتى يومنا هذا.

مجد أبو عامر

باحث وشاعر، ومقرر وحدة الدراسات الاستراتيجية في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، وسكرتير تحرير دورية **عمران للعلوم الاجتماعية**، ومدير تحرير **مجلة 28.** حاصل على البكالوريوس في القانون من جامعة فلسطين (2017)، والماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية من معهد الدوحة للدراسات العليا (2020)، بأطروحة تحت عنوان «تفسّخ الديمقراطية: نحو مقاربة نظرية للتحول الاستبدادي». تتركّزُ اهتماماته البحثيّة في قضايا الانتقال الديمقراطي، والحركات الاجتماعية، والدولة العربية، وقضايا الهوية والشتات الفلسطيني. صدرت له المجموعة الشعرية **مقبرة لم تكتمل** (2018)، ونُشرت له العديد من المقالات في دوريات ومجلات عربية. وهو لاجئ فلسطيني هُجّرت عائلته من قرية عاقر عام 1948، وتنقّلت ما بين غزّة والأردن وسورية ولبنان، لتعود إلى قطاع غزّة بعد توقيع اتفاقية أوسلو (1993) حيث وُلِد.

ميكايلا سحّار

كاتبة وباحثة أسترالية-فلسطينية. حاصلة على الدكتوراه من كلية العلوم الاجتماعية والسياسية، جامعة ملبورن (2015). ركّزت أطروحتها على دراسة العلاقة بين السردية القومية الإسرائيلية والتغطية الإعلامية الغربية في القرن الحادي والعشرين، خاصةً التغطية الإعلامية للتوغلات العسكرية الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية، واستبعاد السردية الفلسطينية، وإمكانية استعادتها. نشرت مقالات حول هويات المستوطنين الإسرائيليين والأستراليين، ومعاملة الدولة الاستعمارية الاستيطانية للآخر، واستراتيجيات المقاومة المعاصرة في فلسطين. تشمل اهتماماتها البحثية: الاستعمار

الاستيطاني المقارن، ومصادرة السرديات، والهوية، والشعوب الأصلية، ومسألة المقاومة في المجتمعات الاستعمارية الاستيطانية.

يارا نصّار

باحثة في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، وسكرتيرة تحرير **مجلة 28**. حاصلة على البكالوريوس في الشؤون الدولية من جامعة قطر (2017)، والماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية من معهد الدوحة للدراسات العليا (2020). تنصبُّ اهتماماتها البحثية حول الحركات الاجتماعية، ودراسات المُقاومة والبقاء، وحالة الاستثناء، ودراسة الشؤون الإيرانية. وهي لاجئة فلسطينية لم تتمكن من زيارة فلسطين من قبل، هُجّرت عائلتها من قرية بربرة المُحتلة عام 1948، وتنقّلت ما بين قطاع غزّة ومصر والأردن، حتّى استقرت في قطر مع ستينيات القرن العشرين، حيث وُلدَت وترعرعت.

يوجينا فلين

كاتبة وناشطة مجتمعية وعاملة في مجال الفنون. وهي تنشطُ بوصفها امرأة أبورجينية وصينية ومسلمة في مجتمعاتها المختلفة، لإحداث تغيير من خلال الأدب والفن والسياسة والمشاركة المجتمعية. عملت مع مركز Kurruru Youth Pe rforming Arts ومركز Wilin، وBlak Dot Gallery، وEleven Collective، والمركز الأسترالي للصور المتحركة (ACMI)، وشركة Ilbijerri Theatre، ومجلة *Peril* ومعهد Ebony Aboriginal and Torres Strait Islander. نُشرت نصوصها ومقالاتها حول سياسات العرق والجنس والثقافة، في العديد من المجلات، منها: *Peril* و*The Lifted Brow* و*Fine Print* و*The Design Files* و*Art+Australia*.

مقدمة

سوزانا هينتي وغاري فولي

إنّه لمن دواعي فخرنا وسرورنا أن نشترك في كتاب **التضامن بين السكان الأصليين: شهادات ونصوص** مع **مجلة 28**. يُمثّل هذا الكتاب الصادر في فلسطين أولى مخرجات مؤتمر «التضامن بين الفلسطينيين والسكان الأصليين: مواجهة القوميات الاستيطانية»، والذي عُقد في جامعة ملبورن في الفترة ما بين 6-8 تشرين الثاني/ نوفمبر 2019[1].

على مدار ثلاثة أيّام مُكثّفة خِلال ربيع عام 2019، وصل إلى مدينة نارم (ملبورن) أكثر من أربعين مؤرخ وأكاديمي وفنان وناشط ومُصمّم ومهندس معماري وشاعر[2]. جاء جميعهم من فلسطين وجزيرة السلحفاة وأوروبا والأردن، ومن كافة أنحاء أستراليا، ليناقشوا ويناظروا ويتأملوا ما يعنيه التضامن العابر للحدود Transnational Solidarity والمقاومة المناهضة للاستعمار في إطاريّ النظرية والممارسة.

تركَّزت اهتمامات المؤتمر على إعادة أواصر التضامن القائمة منذُ زمن بين الأمم الأولى في أستراليا والفلسطينيين، كما حُرِضَ أيضًا على تناول مسألة إنهاء الاستعمار كنظريةٍ قائمة على الحرية والعدالة، وصياغة الاستيلاء الصهيوني على الأصلانية

1 Gary Foley & Suzannah Henty, "Black-Palestinian Solidarity," *Radical Philosophy*, vol. 207 (2020), pp. 126-129.

نستخدم مُصطلح «السود» في إشارةٍ مُباشرة إلى التجمُّع الأسود الذي نشأ في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات في ريدفيرن بتنسيق بول كو واستشارة تشيكا ديكسون. ضمّ التجمُّع غاري فولي، جاري ويليامز، بيلي كريجي، توني كوري، جون نيوفونج، ألانا دولان، سامانثا دولان، لين (ني كريجي)، بيتر ثومسون، بوب بيلار، كاي بيلار، نعومي مايرز، نورما ويليامز، وبام هانتر. يُنظر:

Gary Foley & Edwina Howell, "The media strategy of the Aboriginal Black Power, Land Rights and Self-determination Movement," in: Graham Meikle (ed.), *The Routledge Companion to Media and Activism* (Oxon and New York: Routledge, 2018), pp. 307 - 315.

2 ضمّت قائمة الحضور بحسب الترتيب الألفبائي: أليسار شدياق، أليكسيس رايت، آمي ماكواير، إيان ماكلين، إيرين واتسون، برونوين بنريث، تسنيم السماك، طوني بيرش، جاكي كاتونا، جومانا مانا، جون ماينارد، حمزة بيج، ديستني ديكون، رباب عبد الهادي، رندة عبد الفتاح، ريتشار بيل، سارة م. صالح، ساري زانانيري، سام واتسون، سماح سبعاوي، شذى صافي، عدنية شبلي، غاري فولي، علي القزق، غسان الحاج، فرجينيا فرايزر، فيرنون آ كي، كريسولا ليونيس، كلير لاند، لاريسا بهرندت، لورينزو فيراسيني، ليوبولد لامبرت، مارسيلو سفيرسكي، محمد نور، منظمة أفلام كرابنغ، موراندو يانر، ميكايلا سحّار، نادية أبو الحاج، نادية بين يوسف، هديل العسلي، يوجينا فلين، يوسف الريماوي.

بمُفرداتِ المحو[3]، كما ارتأينا تشجيع وتمكين إنشاء علاقات جديدة، وإلى الاشتباك نقديًّا مع جميع أشكال المقاومة ضد الاستعمار بكل تمظهراته الإمبريالية والرأسمالية والنيو-كولونياليّة والقومية والنيوليبرالية، وفي كل الأماكن، من دجاب ورونج[4] إلى القدس، ومن غزة إلى فيركسون[5]، ومن روجآفا[6] إلى بابوا الغربية[7]، ومن تشياباس[8] إلى كاناكي[9]، ومن ستاندنك روك[10] وحتّى حلب.

وبالنسبة لنا كمُتعاونين ومُنظِّمين للمؤتمر، كانت الأسئلة التالية محوريةً في مشروعنا: ما هي الممارسة العملية للتضامن؟ ما هي الطُرُق التي يُمكننا بها مواجهة الهرمية العرقية والإثنية والجنسية والجندرية ونبذها؟ ما هي المعرفة المُناهِضة للاستعمار؟ بينما تبدو الإجابة واضحة من الناحية النظرية؛ تأييد التحرر والعدالة، فهذه ليست إجابات كافية لتجنُّب ما يُسمّيه عالم الابستمولوجيا الفلسطيني مضَر قسيس Mudar Kassis «المقاومة غير الناضجة».

إنّ تطبيق النظرية على الممارسة يتطلّب الممارسة أوّلًا، حيث يُتيح التعلُّم وإدراك المزيد من التفاصيل للإجابة، لكنّ الاستماع يُعتبر مُهمًّا أيضًا. ومع ذلك، يواجه الكثير منا تحديات في تحديد وإنشاء البنى التحتية المُناهِضة للاستعمار والما بعد رأسمالية بسبب البنى النيوليبرالية الّتي تُقيِّدنا. إنّ عملنا كناشطين وعُلماء ومُعلمين يضعنا أمام تحديات من قِبَلِ المؤسّسات التعليمية الكُبرى التي نتقيّد بها - حتى كمُوظّفين عرضيين غير دائمين. ويُعد أفضل مثال على هذا، طريقة تنظيم المؤتمر على أراضي الوروندجيري Wurundjeri الشاسعة في الكولين الشرقية وفي بروكسل ببلجيكا، كون المنطقتين مسكونتين بأشباح الماضي والحاضر الاستعماري. خلال مداخلته في المؤتمر تحت عنوان «متحف النيكروفيليا الكولونيالية» عبّر البروفيسور غسان الحاج عن ذلك، وأكد أنّه مثلما تَحمِل الهدية روح مانحها، فإنّ الأراضي المسروقة تحمِل شبح

---

3 ناقشت هذا الموضوع في الكتاب ميكايلا سحّار. ربما يُعد احتفال أستراليا المشترك مع إسرائيل في الذكرى المئوية لمعركة بئر السبع في عام 2017، المثال الأكثر إزعاجًا على التأييد الأسترالي الرسمي ومشاركتها في التلاعب الصهيوني بالتاريخ.

4 أحد شعوب الأبورجيين في أستراليا.

5 مدينة أمريكية تقع في ولاية ميزوري.

6 روجآفا أو الإدارة الذاتية لشمال وشرق سورية، وهي منطقة حكم ذاتي بحكم الأمر الواقع تمتدّ في شمال وشرق سورية. حصلت المنطقة على استقلالها الفعلي في عام 2012.

7 مقاطعة بابوا الغربية (بالإندونيسية: Papua Barat)، هي إحدى مقاطعات إندونيسيا وتقع في أقصى غرب غينيا الجديدة، والتي تغطي كامل شبه الجزيرة Vogelkop (رأس الطائر) والجزر المحيطة بها.

8 اسمها رسميًّا ولاية تشياباس الحرة وذات السيادة (بالإسبانية: Estado Libre y Soberano de Chiapas)، هي إحدى ولايات المكسيك الواحدة والثلاثين. تُعد تشياباس موطنًا لآثار حضارة المايا القديمة. وهي أيضًا موطن لإحدى أكبر جماعات السكان الأصليين في البلاد، وتضمُّ اثني عشر عرقية معترف بها فدراليًّا. يتركز جزء كبير من تاريخ الولاية على إخضاع هذه الشعوب التي ثارت في أحيانٍ كثيرة؛ آخر هذه الثورات كانت انتفاضة زاباتيستا في عام 1994، والتي نجحت في الحصول على حقوق جديدة للسكان الأصليين.

9 الكاناك (بالفرنسية: Kanak، كما كانت تُكتب في السابق: Canaque) هم السكان الأصليون الميلانيزيون لكاليدونيا الجديدة، وهي إقليم فرنسي يقع في جنوب غرب المحيط الهادئ.

10 تقع محمية ستاندنك روك في داكوتا الشمالية وداكوتا الجنوبية في الولايات المتحدة، وتسكنها فرق عرقية من الشعوب الأصلية والأمم الأولى في جزيرة السلحفاة.

الحروب الحدودية[11]؛ شبح العنف هذا يتجلّى في بنية الدولة القومية الاستعمارية الاستيطانية، وهو ما بدوره يُصبح شريان حياتها.

سعينا من خِلال المؤتمر وهذه الطبعة الناتجة عنه إلى إدراك وتحدّي هذه الأشباح واختبار ما قد تبدو عليه المعرفة المُناهِضة للاستعمار من خِلال الانخراط معها التنظير لها والعمل فيها. لم تكن إقامة هذا المؤتمر مهمة سهلة، فقد واجهنا معارضة من داخل وخارج مُجتمعاتنا. في أولى أيّام المؤتمر، وجدت المُدافِعة عن حقوق الإنسان والباحثة الفلسطينية-اللبنانية جنين حوراني، والّتي كانت تعمل بوصفها جزءًا من المؤتمر، أنّ الملصقات الرسمية للمؤتمر قد شُوِّهَت بشعارات تُمثّل الأيديولوجية الصهيونية. بعضنا ضحك على الحادثة، أمّا بعضنا الآخر فقد اشتاط غضبًا. وفي ذلك، نقتبسُ تعبير الأستاذة رباب عبد الهادي، الّتي ألقت الكلمة الرئيسية في المؤتمر، مُشيرةً إلى أن ما فعله الصهاينة أثبت أنّنا حركنا المياه الراكدة[12]. في الواقع، يُخبرنا فرانز فانون بأنّه في لحظات التصدُّع والانزلاق، يقع إنهاء الاستعمار[13].

اجتمع المشاركون والحضور معًا على الدوام لمتابعة كل عرض تقديمي يقدمه المشاركون أمام الجمهور الكبير المتكدس المُدرّج الجامعي، كما اجتمعوا حول أكلة فتّة أعدّتها هانا عصافيري، ولشُرب شاي حضّرته رشا تايه في باحة الجامعة، أو للرقص في مركز دراسات ما بعد الاستعمار. خلال أيام المؤتمر الثلاثة، شاهد الحضور أفلامًا في مسرح نوفا بالشراكة مع مهرجان الفيلم الفلسطيني (الذي عُرِضَ خلاله لأول مرة أفلام الأبورجيين كجزء من هذا البرنامج) وحضروا فعاليات عبر الأقمار الصناعية مع **مركز ابن رشد للثقافة العربية** و**الجمعية اليهودية الأسترالية الديمقراطية**، مما أتاح للحضور فرصة تكوين صداقات عديدة، منها ما أدّى لاحقًا إلى طباعة هذا الكتاب.

وعليهِ، لم تأتِ فكرة هذا الإصدار الخاص من **مجلة 28** من المؤتمر فحسب، بل جاءت بعد تعرُّفنا على مؤسس المجلة الكاتب محمود الشاعر، من خلال الكاتبة الفلسطينية والمؤرخة الفنّية عدنية شبلي، الّتي شاركت في أعمال المؤتمر. لم يكُن هذا التعارُف بادرة عفوية أو تزكية ارتجالية، بل كانت تعبيرًا عن الإيمان بنا، حيث أوضحت شبلي أنّه بإنجازنا لهذا الإصدار بأنّ محمود وفريقه في **مجلة 28** هُم مثل العائلة.

---

11 حروب الحدود الأسترالية هو مصطلح أطلقه بعض المؤرخين على الصراعات العنيفة بين سكان أستراليا الأصليين والمستوطنين البيض أثناء الاستعمار البريطاني لأستراليا. وقع القتال الأول بعد عدة أشهر من رُسُو الأسطول الأول في كانون الثاني/ يناير 1788، وحدثت آخر الاشتباكات في مطلع القرن العشرين، في أواخر عام 1934. قُتل ما لا يقل عن 40,000 أسترالي من السكان الأصليين وما بين 2000 و2500 مستوطن في الحروب.

12 للأستاذة رباب عبد الهادي تاريخ طويل في تنمية وتقوية علاقات التضامن، حيث ترأست في عام 2011 مع باربرا رانسبي وفدًا من السكان الأصليين والنساء من العلماء والناشطين/ الناشطات النسويات الملوّنات إلى فلسطين، وكان من ضمن الوفد أنجيلا ديفيس وجينا دينت وشاندرا تالباد موهانتي وأيوكا شينزيرا وج وميليسا غارسيا وآنا رومانيا جيفارا وبيفيرلي جاي-شيفتال وبريميلا نادسين. وربط الوفد بين التجربة المشتركة للأمم الأولى في الولايات المتحدة بمناطق جيم كرو في الجنوب الأمريكي، والفصل العنصري في جنوب أفريقيا.

يُنظر:

Barbara Ransby, "Why We, as Women of Color, Join the Call for Divestment From Israel," *Colorlines*, 13/7/2011, accessed on 28/4/2021 at: https://bit.ly/3jDepAy

13 Frantz Fanon, *Black Skin, White Masks* (New York: Grove Press, 1967).

***

يضم الكتاب مجموعة من التأمُّلات التي تتناول البنية التحتية التي تُحافظ على بنية الاستعمار الاستيطاني بمُختلف تجليّاته الجيوسياسية: وحشية الشرطة، الاحتجاز، العمارة العسكرية، وفيات السود في الحجز، تدمير البيئة، وتزييف الحقائق وادعاء المصالحة. تتساءل هذه المقالات: كيف يُمكننا الإصلاح؟ كيف يُمكننا مُقاومة هذه القوى القمعية؟ ما هو دور التضامن في هذه العملية؟ يقوم المفكّرون الأصليون في هذا الكتاب بالتأمُّل في هذه الأسئلة للنظر في التضامن العابر للحدود كمهمّة معرفية للتعبير عن نضالاتنا وتنظيم مقاومتنا وتخيُّل مُستقبلنا. إنّ ما يربط مُكوِّنات هذا الإصدار معًا هو الاعتراف بأنّ الرعاية المُجتمعية هي مقاومة، كما كتبت آجا مونيه بأنّ «التنشئة هي المقاومة». نحنُ نسعى تجاه هذه الكلمات في هذا الكتاب.

أخيرًا، نودُّ أن نشيدُ بالشعوب الأصلية الّتي تعيش تحت الاحتلال والتي عانت طويلًا في الماضي والحاضر. إنّ مرونتها وثباتها هي ما كان دائمًا، وسيظل دائمًا، مُحفِّزنا ومُلهمنا. كما نودُّ أن نشكُر بشكلٍ شخصي محمود الشاعر وبريانا هوف وفريق مجلة 28 والمساهمين الأعزاء والمُخلصينً في هذا الإصدار وكذلك القُرّاء.

ماذا تُمثّل فلسطين بالنسبة إليه أو ما الذي يُمثّله لفلسطين؟

حميد دباشي

«ذاعَ صيت الفلسطينيين على أنهم شعبٌ يفتعل مشاكل لا أساس لها ولا سبب ولا مُبرر، حتّى أنّ اسمهم صار مرادفًا لذلك. فهم لن يُغادروا كما ينبغي عليهم، ولن يقبلوا بمصير اللّاجئين الآخرين [...] إنّهم يُسبِّبون المتاعب حقًا».

إدوارد سعيد، **مسألة فلسطين**[1]

ما المشترك بين الفلسطينيين والأمم الأولى في أستراليا؟ ما المشترك بين الفلسطينيين وسكّان أمريكا الأصليين؟ ما المشترك بينهم وبين الأمريكيين من أصل أفريقي في الولايات المتحدة؟ أو حتى بينهم وبين شعوب كاشمير وهونغ كونغ الّتي تنتفضُ لأجل حقوقها؟ لِمَ يجب على غير الفلسطينيين الاكتراث بالفلسطينيين؟ هل نُقدم جميلًا للفلسطينيين إذا أيّدنا قضيتهم؟

لا يُمكننا الإجابة على هذه الأسئلة المتشابهة استنادًا على نضالات وطنية من أجل الحرية بعينها، فقد خاضت شعوب أخرى تجارب مماثلة. ولا يمكن أن يستند التضامن حصرًا على نوعٍ من الاستجابات الثُنائية المتبادلة بين مُختلف حركات التحرر الوطني. وفي ذلك، يتعاطفُ سكان أمريكا الأصليين والأمريكيين من أصل أفريقي مع الفلسطينيين، عند رؤيتهم يخوضون المعركة نفسها. مثل هذه الحسابات المقارنة للنضالات تكون محدودة للغاية من حيث الإيمان بها، ويمكن أن تتبدَّد بعد وقت قصير، وقد تُستخدَم لتأليب شعب ضد آخر.

في مظاهرات عام 2020 في إيران، كان بعض المتظاهرين يرددون هتاف: «لا غزة ولا لبنان، أضحي بحياتي من أجل إيران»، وكأنّ الحُرية في غزة أو لبنان تأتي على حساب الحُرية في إيران! إنّ الإجابة على هذه الحجة المعيبة يجبُ أن تستند

1 Edward W. Said, *The Question of Palestine* (New York: Times Book, 1979).

إلى فهمٍ أكثر تمسكًا بالمبادئ وأكثر هيكليةً، وفهمٍ أكثر إحاطةً بالهيمنة الاستعمارية والديكتاتوريات المحلية والانتفاضات التحرُّرية.

يُمثِّل الفلسطينيون كشفًا عن المنسيّ، تمامًا كما يُمثِّل الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين عُقدةً للاستعمار الأوروبي، والّتي تُلاحِق مُحاولاتهم لطمسِ تاريخهم الدموي. يترصّد الرئيس الفرنسي الحالي إيمانويل ماكرون Emmanuel Macron، وغيره من المُحافظين على التاريخ الفرنسي العنصري، لأيِّ شخص يُذكِّرهم بتاريخهم الاستعماري. إنّهم يُنكِرون الإرهاب الذي اقترفوه طوال تاريخهم الاستعماري. ويفعلُ الإسرائيليون اليوم، ما فعله الفرنسيون في الجزائر، والبريطانيون في الهند، والبلجيكيون في الكونغو، والإسبان في أمريكا اللاتينية، وهلّم جرًا. فالصهيونية هي امتداد للمنطقِ الاستعماري الأوروبي حول العالم. لقد ظنَّ الفرنسيون أنّ لديهم كل الحق ليكونوا في الجزائر، وكذلك ظنَّ البريطانيون في الهند، والبلجيكيون في الكونغو. ظنّوا أنّ هذا حقٌ منحهم إياه الرب، ليحصدوا ويستعمروا و«يُحَضِّروا» الشعوب التي غزوها.

هل قرأتم كتاب سفن ليندكفيست **أبيدوا كل الوحوش: أوديسا رجل واحد في قلب الظلام وأصول الإبادة الجماعية الأوروبية**[2] من قبل؟ عليكم قراءته، إذا لم تكونوا قد فعلتم. يروي الكتاب قصة كافة أشكال الاستعمار، بما فيها إسرائيل. عليكم أيضًا قراءة كتاب آدم هوشيلد **شبح الملك ليوبولد: حكاية طمع وإرهاب وبطولة في أفريقيا المُستعمَرة**[3]. نحنُ بحاجة إلى إدراك شامل لكل ما حصل على هذه الأرض، في حال أردنا فهم معنى التضامن مع فلسطين. يُواجه البريطانيون والفرنسيون وبقية المستعمرين الأوروبيين اليوم، موقفًا صعبًا أمام اعترافهم بالذُعر الّذي تسبّبوا به في جميع أنحاء العالم. وحتى لأقلِّهم إجرامًا، تُشكِّل إسرائيل مصدرَ إحراج. إسرائيل بالنسبة إليهم، مسرح أفعالهم الّتي يُحاولون طمسها ودفنها في تاريخهم كيفما استطاعوا.

في ظلِّ هذا السياق العالمي الّذي تسوده إرادتيّ التغلُّب ومقاومة الهيمنة، يظهر أنّ السؤال الأهم الذي يجب أن يطرحه الفلسطينيون وغير الفلسطينيين على أنفسهم هو: ما الذي تعلّمه العالم من معركة الفلسطينيين الطويلة في مواجهة الإبادة على يد المحتل الصهيوني؟ ليست المسألة بين الفلسطينيين وغير الفلسطينيين، ولا بين العرب وغير العرب حتى. ثمة عرب يتعاونون مع أعدائهم الصهاينة. ثمة دول عربية مثل الإمارات العربية المتحدة والبحرين والسودان والمغرب، لم تكترث بالفلسطينيين، وأقامت علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. وعليهِ، فإنّ الدعم والتضامن مع الشعوب

2 Sven Lindqvist, *"Exterminate All the Brutes": One Man's Odyssey into the Heart of Darkness and the Origins of European Genocide*, Joan Tate (trans.) (New York: The New Press, 1997).

3 Adam Hochschild, *King Leopold's Ghost: A Story of Greed, Terror, and Heroism in Colonial Africa*, Barbara Kingsolver (Foreword) (Boston: Mariner Books, 1999).

الأصلية، أو الأمريكيين من أصل أفريقي، أو أيّ شعب آخر، له منطق يختلف عن الإثنية و/أو القومية.

جاءت القضية الفلسطينية والفلسطينيون كاختبار حاسم لكل حركات التحرر حول العالم، بما فيها حركة تحرر ذوي البشرة السوداء في الولايات المُتحدّة. بنى الإسرائيليون لأنفسهم دولةً عسكرية بوصفهم صهاينة، والصهيونية ليست إلا امتدادًا معاصرًا، لأكثر أشكال الاستعمار الأوروبي وحشيةً، وبالتحديد الاستعمار البريطاني. لا يُمكنك أن تعي وتُعارض وحشية أوروبا حول العالم، بينما تغض الطرف عن وحشية الصهيونية في فلسطين. لا يُمكنك أن تقرأ تاريخ الهمجية الأوروبية في العالم الجديد، أو تجارة العبيد عبر المحيط الأطلنطي، بينما تسكت عمّا يفعله الإسرائيليون بالفلسطينيين في وطنهم الأصلي.

دون فلسطين والقضية الفلسطينية، ستبقى قضية الأمريكيين من أصل أفريقي عالقةً في فخ آلة الدعاية الصهيونية المتواصلة، والتي أوقعت حتى أكثر المفكرين ذوي البشرة السوداء ألمعية. إذا كانت أنجيلا دافيز Angela Davis تُمثِّل اليوم أكثر الأمثلة شُهرةً عن دور القضية الفلسطينية في تحرير الأمريكيين من أصل أفريقي من النزعة العدائية، فإن تانهاسي كوتس Ta-Nehisi Coates يُمثل العكس تمامًا، ويُمثِّل بقاء مسألة تحرر ذوي البشرة السوداء واقعةً في فخ الصهيونية.

إنّ خلط كوتس المُتأخر بين مشروع الاستعمار الصهيوني والقومية الأفريقية الأمريكية المناهِضة للعنصرية، لهو أمر مُخجل في هذا الوقت وفي هذا العصر، فهو لا يزال يرى إسرائيل على أنها أُنموذجًا للتحرر! وتبدو كل كلمة ينطُق بها كوتس عن معاناة الأمريكيين من أصل أفريقي فارغةً في ضوء إعجابه بإسرائيل، وتجاهله الكامل لمعاناة ونضالات الفلسطينيين. ولا يُشكِّل فرقًا إذا كان كوتس جاهلًا أو مستفيدًا من الصهيونية، فالنتيجة في النهاية هي ذاتها. كل ما عليكم فعله هو قراءة المقال البديع لبانكج ميشارا المعنون «لماذا يحب البيض ما أكتب؟»[4]، وسترون بالتفصيل ماذا يحصل عندما تفقد قضية الأمريكيين من أصل أفريقي منطقها واتّساقها، إذا تخلّت عن القضية الفلسطينية، وانحازت إلى جانب الصهيونية. إنه أمر مروعٌ بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

يُعد التضامن مع حركة التحرر الفلسطينية حجر أساس لكل حركات التحرر الوطني الأخرى، وإشارة إلى مدى خطورة قربهم من النزعة العدائية. بالنسبة لأشخاص مثل كوتس، لا وجود للفلسطينيين. يُمكنكم قراءة مديحه التمجيدي للصهيونية في مقال له بعنوان «الزنوج يغنون للصهيونية»[5]، لتعرفوا أنّ كل كتاباته تدور حول ذوي البشرة السوداء واليهود (حيث يخلط بين اليهود والصهيونية). ليس فقط

4 Pankaj Mishra, "Why Do White People Like What I Write?," *London Review of Books*, vol. 40, no. 4, 22/2/2018, accessed on 10/3/2021, at: https://bit.ly/3c8uLPB

5 Ta-Nehisi Coates, "The Negro Sings of Zionism," *The Atlantic*, 13/5/2008, accessed on 17/3/2021, at: http://bit.ly/2P2foAw

الفلسطينيين، بل العالم بأسره غير موجود، إذا لا وجود لغيره ومعجبيه الصهاينة الذين يُحاول استرضائهم.

إنّ نضال الفلسطينيين من أجل التحرر هو قضية الفلسطينيين بشكلٍ رئيسي. لقد حاربوا من أجل تحررهم من الاحتلال الاستعماري وسرقة أراضيهم، وباستقلال تام عن تضامن أيّ من المستفيدين من الصهيونية. لن يؤثر أيّ من المواقف على عدالة وقوة القضية الفلسطينية، فما يهم هو ما يخبرنا به تضامن أشخاص مثل دافيز أو مستفيدين مثل كوتس، عن التشكيل الأخلاقي لهاتين الشخصيتين المشهورتين والمختلفتين اختلافًا كبيرًا. تصير فلسطين في هذه الحالة عتبة يفشلُ كوتس في الوصول إليها، وتجتازها دافيز بألوانها الجذابة، ليس لأجل فلسطين، بل لأجل قضية تحرر ذوي البشرة السوداء في الولايات المتحدة.

إنّ «المشاكل» التي يفتعلها الفلسطينيون – بصوت إدوارد سعيد الساخر والرخيم – هي مشاكل جيّدة. أتمنى ألّا يفرغ العالم من مشاكل مثل هذه، لأنها تفضح الفساد والنفاق، وتُبقي شعلة الأمل للإنسانية واضحة ومُشتعلة! لا يُقدِّم أحدٌ جميلًا بتضامنه مع القضية الفلسطينية، فكل من يتضامن معها يمتلك ميزاناً داخلياً لحقيقته وعدالة قضيته.

القسم الأول

سؤال التضامن في السياق الفلسطيني

أحمي منزلي، أكريليك على قماش، 45x60 سم (2019).

تمييز التضامن وتغيير المُحاوَر

نحو إعادة التفكير في الأصلانية فلسطينيًا وفي فلسطين أصلانيًا

مجد أبو عامر

«الخطابُ (الكتابي) المُضاد ومناهضة إنتاج المعرفة الإمبراطورية يَنبَنيان بالكامل على وجوب تغيير الطرف الذي نخصّه بخطابنا».

حميد دباشي، **ما بعد الاستشراق**[1]

تساءلت غاياتري سبيفاك في بداية ثمانينيات القرن الماضي: «هل يستطيع التابع أن يتكلم؟»[2]، وربما ينبغي استعادة السؤال قبل التطرّق إلى مسألة التضامن بين الشعوب الأصلية Indigenous Peoples، إذ مَن يتضامن مع من؟ وبأية لغة؟ فإذا لم يُمثّل التابع/ المُستعمَر نفسه في السياق الاستعماري/ «ما بعد الاستعماري»، فكيف سيتمكن من الخروج على الثقافة الاستعمارية بصوته الخاص، مؤسسًا لوجوده ووعيه ومعرفته. من هذا المُنطلق، يُعالج القسم الأول من المقال سؤال تضامن الأصلانيين مع بعضهم، من خلال تمييز التضامن بين الشعوب الأصلية عن غيره من أشكال التعاطف، وتحديد المُحاوَر المقصود فيه، ومن ثمّ ينتقلُ إلى مناقشة خطاب الأصلانية في السياق الفلسطيني بوجهيه؛ الداخلي والخارجي.

هل يستطيع الأصلاني أن يتكلّم؟

يعودُ مُصطلح الشعوب الأصلية Indigenous Peoples إلى منتصف القرن السابع عشر، عندما استخدمه توماس براون Thomas Browne للتمييز بين العبيد ذوي البشرة

1 حميد دباشي، **ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب**، ترجمة باسل عبد الله وطفه، مراجعة وتدقيق حسام الدين محمد (ميلانو: منشورات المتوسط، 2015)، ص 345.

2 Gayatri Chakravorty Spivak, "Can the Subaltern Speak?," in: Patrick Williams & Laura Chrisman (eds.), *Colonial Discourse and Post-colonial Theory: A Reader* (London: Macat International Limited, 2016), pp. 66 - 111.

الداكنة الذين جُلبوا من أفريقيا للخدمة في الأمريكتين وشعوبها الأصلية[3]، وتجدرُ الإشارة إلى أنّ هذا الاستخدام للمصطلح كولنيالي جوهراني بطبيعة الحال، لا يُعبّر عن الشعوب الأصلية. لكن أعيدَ إحياء المصطلح ومفهمته في سياق حركات التضامن الأممي والتحرّر الوطني ضدّ الاستعمار والتبعية في سبعينيات القرن العشرين، لربط تجارب ونضالات الشعوب المُستعمَرة، فرغم اختلاف السكّان الأصليين عن بعضهم في الكثير من الملامح، إلّا أنّ التاريخ المُتماثل والنضال المشترك والسعي من أجل تقرير المصير، يربطهم ببعضهم.

وفي حين يحملُ الخطاب الكولنيالي نظرةً جوهرانية/ تنميطية إلى الشعوب الأصلية المُستعمَرة، يحملُ خطاب التضامن في العصر «الما بعد كولنيالي» مسحةً شبيهة أحيانًا، إذ يُنظر إلى الشعوب الأصلية في كثيرٍ من الأحيان بصورةٍ نَمطية، بحيث يجري التضامن معها بطريقةٍ تُبقيها على حالها، لا تأخذ بيدها قدمًا، إضافةً إلى أنّ هذه النظرة تُقولب الشعوب الأصلية في إطار الضحية. إن التضامن مع الشعوب الأصلية، لا يعني إقصاءها من ساحة الاحتجاج الخطابية، ولا الركوب على أكتافها للهتاف بصوتها – بالطبع ثمّة خطاب تضامني يعي ذلك، والحديث هنا عن الاستثناء لا العموم – بل يعني نقل صوتهم وصورتهم كما يريدونها، وبكلماتهم هم، فيكون التضامن مرآة أو مُكبّر صوت. وفي ذلك يبرزُ سؤال: كيف يُمكن للتضامن مع الأصلاني منحَه مساحة التعبير والفاعلية حتّى يُصبح بمقدوره أن يتكلم؟

إن الإجابة على هذا السؤال، تتطلبُ تمييز التضامن بين الأصلانيين عن غيره من أشكال «التعاطف»، لتفعيله وجعله متبادلًا. فصحيحٌ أنّ التضامن يعني إعلان الوقوف مع فرد أو جماعة، من خلال مناصرتها والتحشيد لقضيتها، بقصد نقل صوتها والتأثير على الرأي العام، إلّا أنّه عند الممارسة قد يتماهى مع أشكال أخرى. فمثلًا، يُعبّر عن التضامن مع الشعوب الأصلية في كثيرٍ من الأحيان، بطريقة تُشبه التعاطف مع الحيوان، إذ يدعو الخطاب إلى حمايتها من الانقراض، والحفاظ على وجودها في موطنها الأصلي كما لو أنّها نوع حيواني مهدد بالانقراض، مما يُلغي فاعليتها، بل ويقضي على وجودها بالمعنى التحرري، كونه يهدف إلى إنقاذ الحياة لا التمكين. إضافةً إلى أنّ ما يُميّز التعاطف مع الحيوان عن التضامن، أنّنا نتعاطف مع الحيوانات دون أن نتصوّر أنفسنا مكانها. وفي ذلك، ينظرُ هذا الخطاب «التضامني» إلى الشعوب الأصلية/ الأولى على أنّها برّية أو بدائية، لا يُمكنها التعبير عن ذاتها. ولا ينقل هذا الخطاب صوتها، بل صوت المُتضامِن الذي لا يريدُ أن تُثار مشاعر الشفقة لديه عند فقدانها من متحف العالم الحيّ، مثلما شعرَ مع خسارة آخر وحيد قرن أبيض قبل عامين. والمُتضامِن هنا غير مستعد للإمساك بالميكروفون حتّى يستطيع الأصلاني أن يتكلّم، بل وحتّى لا يتقبّل وجوده في مساحة مشتركة، مثلما يرفضُ أن يجلس وحيد

3 Kent Mathewson, "Drugs, Moral Geographies, and Indigenous Peoples: Some Initial Mappings and Central Issues," in: Michael K. Steinberg, Joseph Hobbs & Kent Mathewson, *Dangerous Harvest: Drug Plants and the Transformation of Indigenous Landscapes* (Oxford: Oxford University Press, 2004), p. 13

القرن في منزله. يُمكنُ بالمثل تخيّل نظرة هذا المُتضامِن غير المُرحِّبة تجاه هندي أحمر أو أبورجي يرتدي لباسه التقليدي ويسيرُ في مُجمّع تجاري Mall.

ويتقاطع مع هذا الشكل من التضامن، تضامنٌ مردهُ حلَّ عُقدة الذنب التي تلوكَ ضمير الأبيض/ المُستعمِر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأصلاني الذي انتقلَ من مجالٍ إلى آخر وارتدى قناعًا أبيض، وتحوّل خطابه من الأصلاني نحو «الاستشراقي»، من خلال اقترابه من هيئة المُستعمِرين السابقين الذي يظنُّ أنّه بذلك يُصبح أكثر تحضّرًا[4] وأقدر من نظرائه الأصلانيين في معرفة مصلحتهم[5]. وهو عندما يُعبّر عن «تضامنه» يحاول استخدام لغة وسطية «مُعتدلة» تدعو إلى التعايش والمصالحة، الأمر الذي يخدمُ الخطاب الاستعماري بتكريس الوضع القائم، أكثر مما يدعمُ السردية الأصلانية، بحيث يُبنى الخطاب هنا على لغة المواساة لا التضامن.

يُقارب عبّاد يحيى المسألة من منظور سيكولوجي، إذ يرى أنّ «معضلة التضامن، اليوم، أن غايته وأثره متصل بالمتضامن نفسه، وليس مع المتضامَن معهم، أو القضية المقصودة بالتضامن. هنا التضامن حاجة نفسية بالدرجة الأولى لمعالجة هواجس ضميرية ونفسية، قد تباغت المتضامن، حين يتعرض لسيل الصور والأخبار والمواقف، ويجد نفسه تحت ضغط الإعلام والعامة، مطالبًا بفعل شيء»[6].

أمّا المستوى الثالث من التمييز، فيتمثلُ في التفرقة بين العصبية والتضامن، فالتضامن بين السكان الأصليين يبني شبكة العلاقات بناءً على حالة مُتماثلة من التاريخ والنضال، بقصد التحرّر وتحقيق السيادة. إذا لا يهتمُّ التضامن بين السكان الأصليين بالدين أو العرق أو القومية، إنما بالهدف المشترك. أمّا العصبية فتقومُ على الانتماء والولاء بالأساس، وعليه لا يصحُّ القول إن فلسطينيًا يتضامن مع فلسطيني يعيشُ في مكان آخر، إذ إنّ قضيتهم واحدة، وهو عندما يناصرها، إنما يدافع عن حقه.

تنبعُ أهمية التمييز في المستويات الثلاثة السابقة، من كون اللغة تلعبُ دورًا محوريًا في التضامن، بوصفها حيّز التعبير وبناء السرديات. ففي الكثير من الأحيان، يتضامن المُتضامِن مع المُتضامَن معه وفق طريقته هو، وكأنه ينفي عنه صوته، ويظهره بالطريقة التي يريدها، ويدّعي أنّه يعرفه أكثر منه، مما ينفي عن الممارسة صفة التضامن. وهل

4 يُمكننا أن نستذكر هنا الدور الذي جسّده صامويل جاكسون في فيلم 2012) Django Unchained)، إذ جسّد دور كبير الخدم الأسود الذي يضطهد أبناء جلدته أكثر من سادته البيض، للشعور بالتحضّر من جهة ولإثبات الولاء من جهةٍ أخرى.

5 ناقش هذا الموضوع في سياق ما بات يُعرف بدراسات ما بعد الكولنيالية فرانز فانون وجلين شون كولتهارد وحميد دباشي. يُنظر:

Frantz Fanon, *Black Skin, White Masks*, Charles Lam Markmann (trans.), Homi K. Bhabha & Ziauddin Sardar (foreword) (Sidmouth: Pluto Press, 2008 [1952]); Glen Sean Coulthard, *Red Skin, White Masks: Rejecting the Colonial Politics of Recognition*, Taiaiake Alfred (foreword) (Minneapolis and London: University of Minnesota Press, 2014); Hamid Dabashi, *Brown Skin, White Masks*, (Sidmouth: Pluto Press, 2011).

6 عبّاد يحيى، «عن التضامن والباندا»، **العربي الجديد**، 2015/7/5، شوهد في 2021/3/13، في:
https://bit.ly/3rJBwgj

أنقذَ الرجال البيض النساء الملوّنات من بيت النار (الساتي)[7] الذي اخترن السكون فيه مع أزواجهن؟ جوابي: بالتأكيد لا. وبالمثل، لا يُمكن نصرة الشعوب الأصلية والتضامن معها دون سماعها تتكلّم. وعليه، إن التضامن ليس مجرد خطاب/ بيان أكاديمي، بل هو في جوهره حوار حقيقي.

إن تضامن الشعوب الأصلية مع بعضها، يتطلّبُ منها إبراز خطابها وسرديتها، ومناصرة بعضها، ليس من خلال إسقاط تجربة إحداها على الأخرى، بل من خلال لعبها دور المرآة لبعضها البعض. حيث إنّ نضال أي شخص من أجل الإنسانية والتحرّر، يجعله بالضرورة يدعم نظرائه في مكانٍ آخر في العالم، سواء كان في فلسطين أو هونغ كونغ أو كندا أو أستراليا.

بعد تمييز التضامن، ينبثقُ سؤال: إلى مَن نوجّه خطاب التضامن؟ قد تبدو الإجابة بدهية، إلّا أنها ليست كذلك عند الممارسة، حيث إنّ جزءًا كبيرًا من خطاب الشعوب الأصلية موجّه إلى ما يُسمى «المجتمع الدولي»، ويسعى إلى استقطاب أصوات جديدة – المُستعمِرين غالبًا – بذريعة أنّ ذلك يجعله أكثر تأثيرًا. ونظريًا يبدو ذلك فعّالًا، وهو كذلك في سياقٍ آخر غير قضية السكّان الأصليين، كون مسألتهم تعني تغيير الوضع القائم لا تحسينه، وهذا أمرٌ لا يصلحُ أن يكون المُحاوَر المقصود فيه هو المُستعمِر. فما يتوقعه الاستعمار الاستيطاني من الشعوب الأصلية، هو الاختفاء فقط؛ أن يستيقظ المستعمرون في صباحٍ مُشمس، دون أن يجدَوا أصلانيًا يشوّش عليهم الاستمتاع بمستعمرتهم الجميلَة، تمامًا كما صوّرت ذلك ابتسام عازم في روايتها الذكية **سفر الاختفاء**[8].

لذلك، فإنّ تمييز التضامن، ومن ثمّ تغيير المُحاوَر ليكون هو الأصلاني ذاته، هو ما يفتحُ للتضامن أُفقًا ويمنحه الراهنية، فكما يقولُ حميد دباشي: «تغيير المُحاوَر واستيعاب الممكنات المتاحة على مستوى العالم لمعالجة القضايا الأساسية في زمننا الراهن والمتعلقة بأولئك المستهدفين من دعوات الحرب الإمبراطورية على التوازي، مع اتخاذنا القرار في تحديد الطرف الذي تتوجّب مخاطبته، هي اللبنات الأساسية في تخليق وتدعيم الفعل التاريخي الذاتي للناقد ما بعد الكولنيالي»[9].

الأصلانية في الخطاب الفلسطيني

هل الفلسطينيون أصلانيون أصلًا؟ ربما يتبادرُ هذا السؤال عند قراءة العنوان، إثر المحاولات الإسرائيلية التي عملتُ لأكثر من قرنٍ على أن تكون الإجابة «لا»، فإلى جانب سعيه إلى محو السكان الفلسطينيين، وإعادة تكراره للحدث النّكبوي عام

7 طقس ديني عند بعض الهندوسيين، تُقدم فيه المرأة التي مات زوجها على حرق نفسها مع جثة زوجها. وفي عام 1829، بات هذا الطقس غير قانوني.

8 ابتسام عازم، **سفر الاختفاء** (بيروت/ بغداد: منشورات الجمل: 2014).

9 دباشي، ص 344-345.

1948 على كل واحدة من الجماعات الفلسطينية في شتّى أماكن تواجدها[10]، يعملُ المشروع على إخراج الفلسطينيين من التاريخ، وتجريدهم من أصلانيتهم بادعائه أن هذه الأرض تعودُ لما يصفه بشعب إسرائيل[11]. وعلى عكس السردية الصهيونية التي تحاولُ إظهار الفلسطينيين القدماء شعبًا هندو-أوروبيًا غريبًا عن أرضه، فإنّ الفلسطينيين شعب عربي سامي أصيل، كما أنّه واحد من أقدم شعوب العالم تمدنًا بحضارة عمرها أكثر من 12 ألف عام بدأت في تليلات الغسول شمال أريحا[12].

بوصفهم أصلانيين، هل يوظّف الفلسطينيون الأصلانية في نضالهم التحرّري؟ لاحظَ أحمد أمارة ويارا هواري أنّ العديد من الباحثين الفلسطينيين قد أدرجَوا مفهوم الأصلانية في أعمالهم بعد النكبة عام 1948، إلّا أنّ استخدامه ما زال محدودًا على المستوى السياسي[13]. ويرفضُ الفلسطينيون على نحوٍ ما قبول مقارنة أنفسهم بالسكّان الأصليين، ويعود ذلك – بحسب ليلى أبو لغد – إلى أنّ ممارسة طقوس الاعتراف والمُطالبة بالحقوق تبدو غريبة بالنسبة لشعبٍ بنى لغته السياسية على مفردات التحرير الوطني المناهض للاستعمار، التي تغيبُ عن إعلان الأمم المتحدة لحقوق الشعوب الأصلية (2007). إضافةً إلى أنّ الفلسطينيين لا يشعرون أنّ ثقافتهم مهددة بالانقراض، على عكس باقي السكّان الأصليين، فالتهديد يمسُّ حياتهم وتطلعاتهم السياسية. كما أنّ غالبية الفلسطينيين يعيشون حاليًا خارج فلسطين التاريخية، بعد أن طُردوا وأصبحوا لاجئين ومنفيين[14].

مع ذلك، يعود الحوار بين السكان الأصليين والفلسطينيين إلى ما لا يقل عن نصف قرن. حيث حدث أول تواصل جوهري خلال ذروة حركة الهنود الأمريكيين American Indian Movement، عندما نظر النشطاء الأصليون مثل أقرانهم من الفهود السود Black Panther، إلى نضالات التحرر العالمية من أجل الإلهام والتضامن[15]. إضافةً إلى وجود ترابط بين الفلسطينيين وحركات التحرر ومن ضمنها الأممية السوداء، إذ يجمعها نضال مشترك مع الفلسطينيين ضدّ الإمبريالية منذ ستينيات القرن الماضي، سواءً على المستوى الشعبي أو التنظيمي، الذي يُدلل عليه العلاقات التي جمعت بين

10 إسماعيل ناشف، **صور موت الفلسطيني** (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015).

11 يُنظر: الفصل الرابع من الكتاب لروبرت واريور، الذي يشرح فيه محاولات الربط بين جغرافيا فلسطين والقصص التوراتية.

12 يُنظر: علاء محمود أبو عامر، **الفلسطينيون-الكنعانيون القدماء: الحقائق، الألغاز، الأساطير** (حيفا: مكتبة كل شيء، 2017).

13 أحمد أمارة ويارا هواري، «توظيف الأصلانية في النضال التحرّري الفلسطيني»، **الشبكة**، 2019/8/8، شوهد في 2021/3/21، في:

https://bit.ly/2NHpbKM

14 Lila Abu-Lughod, "Imagining Palestine's Alter-Natives: Settler Colonialism and Museum Politics," *Critical Inquiry*, vol. 47, no. 1 (2020), pp. 8 - 13.

15 Steven Salaita, "Zionism and Native American Studies," *Abolition Journal*, 6/6/2017, accessed on 12/3/2021, at:

https://bit.ly/2OqJUCT

حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مع رابطة العمّال الثوريين السود وحزب الفهود السود[16].

وإلى جانب ضعف توظيف الأصلانية، لم يعُد للتضامن حضورًا في الخطاب السياسي الفلسطيني، فمع ذهاب منظمة التحرير الفلسطينية نحو مشروع السلطة الوطنية الفلسطينية إثر توقيع اتفاقيات أوسلو (1993)، تحوّل الخطاب المؤسسي الرسمي الفلسطيني من سردية التضامن الأممي مع فلسطين إلى الإغاثة الدولية للفلسطينيين. وبعد أن كانت الشعوب تتضامن مع الفلسطينيين بوصفهم مناضلين في مشروع تحررهم، أصبح المجتمع الدولي يتبرّع من خلال برامجه الإغاثية للفلسطينيين بوصفهم حالات إنسانية.

قبل وفاته بوقت قصير، صرّح ياسر عرفات – ربما دون وعي منه بالوجوه الأخرى لحديثه – بأنّ الفلسطينيين ليسوا هنودًا حمر، إذ فشلت إسرائيل في القضاء عليهم، وقد جعلوا من القضية الفلسطينية أكبر مشكلة في العالم[17]، الأمر الذي يقرأه جوزيف مسعد على أنه تأكيد على ارتباط الفلسطينيين بالهنود الحمر، ليس بمفارقة الهزيمة، بل كون النضال الفلسطيني لا يختلفُ عن النضالات الجارية في جزيرة السلحفاة أو جنوب أفريقيا، حتى لو اختلفت طرائقها وأشكالها[18]، الأمر الذي دفعَ روبرت لوفليس Robert Lovelace (الرئيس السابق لمنظمة Ardoch Algonquin First Nations) لوصف غزّة على أنّها "أكبر محمية هندية في العالم"[19].

على الفلسطينيين إدراك أنّ السكان الأصليين ليسوا مؤشرًا على التجريد الوشيك للفلسطينيين من وطنهم، إنّما هُم أصوات مُعاصرة تُخبرنا بشكلٍ مُباشر عن الحال الفلسطيني، تمامًا كما يُخبر الفلسطينيون مُباشرةً عن حال أراضي الهنود الحمر، وما شبكات التضامن التي تشكّلت بين الفلسطينيين والسكّان الأصليين، إلا دليلًا على استحالة هزيمة السكّان الأصليين، فالاعتراف بوجودهم المادي يعني أنّهم لم يُهزموا[20].

إنّ المهمة في السياق الفلسطيني أصعب من نظيرتها لدى السكّان الأصليين في مناطق أخرى من العالم، فكما قال محمود درويش: «نحن قليلو الحظ في أن تكون إسرائيل هي عدونا، لأنها تحظى بمؤيدين لا حد لهم في العالم. ونحن أيضًا

16 ديريك آبيد، «الفهود وفلسطين: الأمميّة السوداء والثورة الفلسطينية»، ترجمة سماح إدريس، **الآداب**، 2020/6/14، شوهد في 2021/3/7، في:

https://bit.ly/3qo8Bg7

17 Graham Usher, "We are not Red Indians," *Al-Ahram Weekly Online*, no. 715 (2004).

18 Joseph Massad, "Against Self-Determination," *Humanity*, vol. 9, no. 2 (2018), p. 162.

19 "Bob Lovelace, Canadian Delegate to Freedom Flotilla III," Beit Zatoun, 14/6/2015, accessed on 14/3/2021, at:

https://bit.ly/3bMXQ2S

20 Steven Salaita, "American Indian Studies and Palestine Solidarity: The Importance of Impetuous Definitions," *Decolonization: Indigeneity, Education & Society*, vol. 6, no. 1 (2017), pp. 21-22.

محظوظون لأن تكون اسرائيل عدوّنا، لأن اليهود هم مركز اهتمام العالم. لذلك ألحقتم بنا الهزيمة وأعطيتمونا الشهرة»[21]. حيث يعملُ جهاز إسرائيل الدعائي بلا كللٍ على خلق جسور تواصل بين اليهود والسكان الأصليين، بزعم أنّ اليهود الذي يحتلّون فلسطين هم أصلانيين أيضًا![22] إضافةً إلى وجود صراع أكاديمي بين الدراسات الصهيونية ودراسات السكان الأصليين، حيث تحاول الأولى الاستناد على «سرديات تاريخية» وتكتيكات خطابية، لا تدافع عن «إسرائيل» فحسب، بل وتقفُ ضدّ إنهاء الاستعمار في أمريكا الشمالية، وتدّعي أنها الأحق بدعم الأصلانيين. إن الاستعمار الاستيطاني في جوهره ينطوي على جعلِ المُستعمِر أصلانيًا أكثر من الشعب الأصلي.

الفلسطينيون في الخطاب الأصلاني

على الضفّة الأخرى من مسألة التضامن بين الفلسطينيين والسكّان الأصليين، نجدُ أيضًا ارتباكًا في الخطاب الأصلاني تجاه الفلسطينيين، يُشير إلى ذلك ستيفن سلايطة: «ثمّة لازمة أسمعها أحيانًا من هؤلاء العاملين في حقل دراسات الهنود الأمريكيين أو دراسات السكان الأصليين، وهي أن فلسطين قضية جديرة بالاهتمام، لكنها خارجة عن اهتماماتهم»[23]. وعلى السكّان الأصليين في هذا السياق، عدم السماح لـ «إسرائيل» باختراق خطاب الأصلانية[24]، وإدراك أنّ «البنية الاستعمارية في فلسطين، لا تخصُّ فلسطين وحدها بمعزلٍ عن العالم؛ وإنما بنية استعمارية جزئية تنتمي إلى منظومة أكبر»[25]. وعليه، يكونُ التضامن مع الفلسطينيين في نضالهم، خطوةً في تحرّر الشعوب الأصلية الأخرى، كما عبّر عن ذلك ببلاغة نيلسون مانديلا Nelson Mandela بقوله: «حريتنا منقوصة دون حرية الفلسطينيين».

والتضامن مع فلسطين يعني العمل الملتزم على نحوٍ ما بالتحرّر الفلسطيني، دون أن يشمل ذلك بالضرورة على إلقاء خطابات حول ذلك أوَ تنظيم تظاهرات، حيث يُمكن أن يكون مساهمة أكاديمية أو تربوية، فالتضامن إحدى سمات حقل الدراسات الفلسطينية[26]. خاصةً أنّ الفلسطينيين والسكّان الأصليين يعيشون في موقع بائس في الأكاديميا، مما يجعلهم عرضةً لافتراضات جوهرانية ونظرة عُنصرية، فالعنصرية الأكاديمية تَسبق وتُثبّت الدور الرقابي الذي يمنحه الصهاينة لأنفسهم فيما يتعلق بديموغرافيا المُستعمرة[27].

---

21 «محمود درويش في «موسيقانا»: «إن شعبًا بلا شِعر هو شعب مهزوم»»، **بدايات**، العدد 5 (2013).

22 كمثال على ذلك، يُنظر نشاط الكونغرس اليهودي الكندي CJC في الدمج بين سكّان كندا الأصليين واليهود الإسرائيليين: Mike Krebs & Dana M. Olwan, "'From Jerusalem to the Grand River, Our Struggles are One': Challenging Canadian and Israeli Settler Colonialism," *Settler Colonial Studies*, vol. 2, no. 2 (2012), pp. 138-139.

23 Salaita, "American Indian Studies and Palestine Solidarity," p. 8

24 لمثال عملي على ذلك، يُنظر مقال ميكايلا سحّار حول حملة سيناء وفلسطين في: الفصل الخامس.

25 مجد أبو عامر (حوار)، «إسماعيل ناشف: علينا التّحديق في النّكبة لا الهرب منها»، **مجلة 28**، العدد 15 (2020)، ص 23.

26 Salaita, "American Indian Studies and Palestine Solidarity," p. 2.

27 Salaita, "Zionism and Native American Studies."

ختامًا، في حين أدركَ أسلاف كولومبوس البيض متأخرًا أنّ السكان الأصليين ليسوا حيوانات بريّة بل بشر، من الضروري ألّا يرتهن السكّان الأصليين إلى خطواتٍ من «المجتمع الدولي» للاعتراف بأنّ من حقّهم التنفس، والبديل هو تحوّلهم من التضامن الرمزي إلى تضامن يتّخذ من العمل المشترك الشامل (داخل المؤسسة القائمة وخارجها) أساسًا له، وذلك يتطلّب أولًا تمييز التضامن وتغيير المُحاوَر. وعلى السكّان الأصليين (ومن ضمنهم الفلسطينيين)، العمل ليس فقط على دعوة الآخرين إلى التضامن، بل توريط الجميع في نضالهم، كما يدعو إلى ذلك المثقف المُشتبك فرانز فانون: «يجب أن نورط جميع الناس في المعركة حتى نضمن السلامة العامة والخلاص العام. ليس هناك أيدٍ نقية، ليس هناك أبرياء، ليس هناك متفرجون [...] كلٌ متفرج جبان أو خائن»[28].

28 فرانز فانون، **معذبو الأرض**، ترجمة سامي دروبي وجمال الأتاسي، ط 2 (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، 2015)، ص 162.

فلسطين عبر الحدود

الوفود بوصفها أداة للنضال المُشترك

عمر زهزه

ظهرت منظمة حركة الشباب الفلسطيني Palestinian Youth Movement في أعقاب التشرذم السياسي والجغرافي والثقافي، الّذي أحدثته اتفاقية أوسلو (1993) الكارثية. ففي حين شاعت الانتقادات الموجهة لنموذج أوسلو بشكل متزايد بين مجموعة واسعة من النشطاء الفلسطينيين وفي حملات التضامن، إلّا أنَّ تشكيل حركة الشباب الفلسطيني كان أمرًا فريدًا، ويستحق التعليق عليه لعدةِ أسباب[1]. أولًا، وكما ورد في اسمها، تأسست الحركة لتولي اهتمامًا خاصًا بالشباب. لكن مفهوم الشباب أثبت أنّه مفهوم مُتحرّك؛ فالشباب الأكثر تعليمًا من فئة عمرية محددة كانوا مهمين بالنسبة إلى الحركة في الفترة ما بين عاميّ 2006-2011، لأنّ مؤسسي المنظمة شعروا أنّ الشباب قد عومِلوا على أنّهم دعائم تُشفق عليها الحركات، ولم يُعدُّوا أكثر من مجرد أطفال سُذّج يتمّ إخبارهم بما يجب فعله، بدلًا من إعطائهم الأدوات اللّازمة لإثبات وتأكيد حضورهم.

وصار مفهوم الشباب بعد عام 2011 مجازيًا وليس حقيقيًا. فكان من المفترض أن يشمل وصف الشباب في النهاية، جميع أجيال الفلسطينيين الّذين سيتأثرون سلبًا بالعصر الجديد من الاستعمار النيوليبرالي الّذي بدأ بما يُسمى بـ «عملية السلام»، بغض النظر عن أعمارهم. وسرعان ما صار القصد من استخدام هذا المصطلح قبل كل شيء، توفير وطن مجازي ورمزي لجميع الفلسطينيين الّذين تأثّروا نفسيًا وتشرّدوا من أوطانهم مرةً أخرى، وهذه المرة على يد القوة الاستعمارية الصهيونية الّتي ارتدت

1 للمزيد حول الانتقادات الأساسية لاتفاقيات أوسلو في الأعمال الأكاديمية الّتي تركز على فلسطين، يُنظر مثلًا:
Toufic Haddad, *Palestine Ltd.: Neoliberalism and Nationalism in the Occupied Territory* (London: Bloomsbury, 2016); Sunaina Maira, *Boycott! The Academy and Justice for Palestine* (Berkeley: University of California Press, 2017); Andy Clarno, *Neoliberal Apartheid: Palestine/Israel and South Africa After 1994* (Chicago: University of Chicago Press, 2017).

زيّ المُخبر المحلي[2]. كان الشباب ولا يزالون مثالًا لتصنيف يشمل كلًا من الأشخاص المُنضمّين حاليًا داخل الحركة، وكل من تُواصل الحركة في السعي نحوه حتى يومنا هذا.

ثانيًا، كانت حركة الشباب الفلسطيني تاريخيًا حركة عابرة للحدود، حيث تأسست على إثر مؤتمر عُقد في إسبانيا عام 2006، وترتبط هذه الدلالة بالنقطة الثالثة لتميزها؛ إذا لم يكن رفضها لاتفاقية أوسلو أبدًا محض مجاز. لقد أُعلِنَ عن الرفض واتُّخذ هذا الموقف بقصد إحياء روح الترابط الثوري نفسها الّتي ربطت الفلسطينيين في السابق، في نضالهم العابر للحدود لعدّو الأجيال، خصوصًا بعد ولادة حركة المقاومة الفلسطينية الحديثة في ستينيات القرن الماضي. أينما كنت، فإن كونك فلسطيني يعني أن تكون مُلزمًا بحقِّ النضال من أجل الوطن. كان تشكيل حركة الشباب الفلسطيني في عام 2006 بمثابة استهزاء صريح بإعلان السلطة الفلسطينية الفاسدة بنيويًا، بأنّ القضية الفلسطينية ستتحوّل من مسار التحرر إلى مقاومة الساسة البرجوازيين، وأنّ اللّاجئين والمنفيين ليس لديهم أيّ مصلحة أو مطالبة بوطنٍ فلسطيني من الآن فصاعدًا.

أدّى مفهوم عدم قدرة الحدود على وقف السعي تجاه المقاومة بطبيعةِ الحال، إلى طرح أسئلة حول النضال المشترك. من المؤكد أنّ هذا هو الحال دائمًا بالنسبة للمقاومة الفلسطينية. وإنّ خوض النضال من المنفى القسري دفعَ منظمة التحرير الفلسطينية على الدوام إلى النظر والتعامل مع الخصوصيات الاجتماعية والسياسية في أماكن تواجدها. وقد دربت منظمة التحرير الفلسطينية أعضاء آخرين في حركات المقاومة، وهم يشنون نضالاتهم الخاصة ضد الهيمنة العنصرية والاستعمارية والقمع.

ما نتعلمه من سلسلة الأحداث هذه، هو أنّ الثورة تخلق الإخلاص والتعاطُف. أن تكون ثائرًا أنانيًا، يعني أن تكون انتحاريًا، لأنّ القمعَ يخلق تضامنًا في كِلا الاتجاهين، كما صرحت أنجيلا ديفيس Angela Davis بذكاءٍ ذات مرة[3]. غالبًا ما تكون أنظمة القمع نسبيةً بطبيعتها ومترابطة بشكلٍ جذري، وهو ما يتطلب من المقموعين أن يصنعوا روابط مقاومة فيما بينهم لتحقيقِ التحرر الشامل.

من المؤكّد أنّ حركة الشباب الفلسطيني، ليست منظمة التحرير. حركة الشباب ليست حزبًا سياسيًا، وهذا كان خيارهم، إذ تشكلت الحركة في سياقٍ جرى فيه إقصاء

---

2 رغم بعض المظاهر المتناثرة، فإنّ السلطة الفلسطينية لم تتراجع أبدًا عن معادتها الأساسية للفلسطينيين. إنّ ما يسمى بـ «رفض» محمود عباس للضم، بما في ذلك التهديد الضعيف بوقف كل التنسيق الأمني، يجب أن يُنظر إليه على أنّه ليس أكثر من نوبة غضب طفولية شديدة. إنّ مجرد وجود السلطة الفلسطينية مبني على قدرة الدولة الصهيونية على الاستعانة بالسلطة لتقوم بالوكالة عنها، برقابة واعتقال وتعذيب الفلسطينيين. ولذلك، فإنّ السلطة الفلسطينية غير قادرة من الناحية الهيكلية على التعامل مع التنسيق الأمني على أنّه مسألة أهواء. بالإضافة إلى أن السلطة الفلسطينية بوجود عباس وبوصفه دمية الدولة الصهيونية المجيدة، كانت تُسلِّم فلسطين وحقوق الفلسطينيين واستقلالهم الذاتي على طبق من فضة منذ بدء اتفاقية أوسلو. بالنسبة إليهم، يكون التظاهر الآن بالدهشة إزاء ما يحصل من انتزاع حزب الليكود الفاشي للضم، عبارة عن إهانة للمخابرات الفلسطينية. وما لم تصوت السلطة الفلسطينية لحلِّ نفسها وإنهاء قمعها المخزي لشعبها، أو تعيد توجيه الطاقة والزخم السياسيين نحو إعادة تفعيل حقيقي لدور منظمة التحرير الفلسطينية المكرسة للتحرر الحقيقي مرةً أخرى، فإنّ استعمار كل فلسطين لن يكون احتمالًا فحسب، بل أمرًا حتميًا.

3 سَمعتُ ديفيس تُعبِّر لأول مرة عن هذه النقطة المحددة في محاضرة أعضاء مجلس جامعة كاليفورنيا في 11 أيار/ مايو 2014، لكن ديفيس أمضت سنوات في الجدال حول ضرورة التضامن بين المضطهدين.

الكثيرين من خِلال عدد من إجراءات النظام الحزبي والفئوي والانقسام الّذي نتج عنه. لكن لا يجب لهذا الفرق المُميِّز لحركة الشباب الفلسطيني أن يُسجَّل على أنّه إنكارٌ لأهمية منظمة التحرير الفلسطينية، في تشكيل ملامح واتجاهات النضال المقاوم الحديث. كان مبدأ الروابط المشتركة للنضال، الّذي أطّر حركة التحرير منذ ستينيات القرن الماضي وحتى عصر «عملية السلام»، سِمةً أساسية لحركة الشباب الفلسطيني.

واستضافت الحركة في عام 2015 (عام انضمامي إليها)، أول مدرسة صيفية في الولايات المتحدة لمدة أسبوع، وكانت مُخصّصة لتوظيف وتمكين الشباب الفلسطيني-العربي. ازدادت عدد العضويات بعد هذا التاريخ، ورافق ذلك ظهور أفرع للحركة في جميع أنحاء البلاد، وما زالت تنمو بشكلٍ كبير حتى كتابة هذه السطور. أشار ظهور حركة الشباب الفلسطيني في الولايات المتّحدة إلى نموّ ثمرة جديدة تُعبِّر عن التضامن الثوري العابر للحدود. هذا هو التطور الّذي أودُّ التركيز عليه في بقية المقال.

ببساطة، وضعت منظمة حركة الشباب الفلسطيني صوب عينيها التفاني في خدمة المجتمع وتمكينه، جنبًا إلى جنب مع أولوية النضال التحرري الفلسطيني، أي جعلهما تأسيسيين بشكلٍ مُتبادل، عوضًا عن أن يكونا متناقضين، وهذا ما ضَمن دائمًا أنّ تشكيل مؤسساتٍ حقيقية – ثقافية وسياسية – هو التركيز الأساسي للمنظمة. صار هذا الأمر ذي أهمية أكبر بعد اتفاقية أوسلو بشكلٍ خاص، إذ أُلغيت جميع اتحادات منظمة التحرير الّتي كانت مُخصّصة سابقًا للتمكين الثقافي والسياسي والمادي. لكنّه عنى أيضًا استمرار الاهتمام الأخلاقي بخصوصيات تشابُك النضال، حتى مع طرح سياقات جغرافية جديدة، وذلك بدلًا من الإصرار الجامد والشوفيني على إشراك فلسطين في مجال سياسي ضيق. تجاوزت هذه اليقظة التعاطفيّة الحدود الوطنية والإثنية والثقافية، حتّى أصبحت حركة الشباب الفلسطيني معنيّةً أكثر بكيفية محاربة الصهيونية على الصعيدين العالمي والمحلي، والّتي تنطوي أيضًا على تحدي مجموعة واسعة من الأنظمة المتشابكة والهياكل وأشكال الاضطهاد.

على سبيل المثال، وبعد عمل استمر لعدّة سنوات مع ائتلاف «أوقفوا تجسس شرطة لوس أنجلوس Stop LAPD Spying»، شارك أعضاء حركة الشباب الفلسطيني في بحث أفقي حول دور الصهيونية في الرقابة العنصرية واستراتيجيات المراقبة مثل مكافحة التطرف العنيف Countering Violent Extremism، والبرامج التابعة والقائمة على الاستنساخ الفعلي لـ «الشرطة الثقافية» عبر الإسلاموفوبيا والمراقبة المعادية للعرب، والّتي يجب الكشف عنها وفضحها الآن أكثر من أيّ وقت مضى، خصوصًا في عصر انتفاضات جورج فلويد George Floyd[4]. ازدادت بذلك أهمية الوفود كأداة في ترسيخ الروح الثورية المُشابِهة وترسيخ الالتزام. أرسلت حركة الشباب الفلسطيني في

4 إنّ كتابات مصطفى بيومي الأخيرة حول استخدام «قوانين الإزعاج» كوسيلةٍ لإجبار أصحاب المتاجر العرب في مناطق مثل ديترويت على الاتصال بالشرطة بشكل عشوائي، لمنع فقدان سبل عيشهم بسبب قوانين الدولة الانتقامية، تُعد مقدمة جيدة لهذه الدينامية. يُنظر:

Mustafa Bayoumi, "Why Did Cup Foods Call the Cops on George Floyd?," *The New York Times*, 17/6/2020, accessed on 23/2/2021, at: https://nyti.ms/3jRYVch

أمريكا على سبيل المثال في تشرين الثاني/ نوفمبر 2018، وفدًا من السكان الأصليين إلى فلسطين لمدة عشرة أيام، حيث اصطُحبَ هؤلاء النشطاء من جزيرة السلحفاة في جولة إرشادية إلى فلسطين. وشاركت الحركة في نيسان/ أبريل 2019 بالتعاون مع مركز Afro-Middle East في جوهانسبرغ بوفدٍ دولي من الفلسطينيين المسافرين إلى جنوب أفريقيا. أسفر كلا الحدثين عن نتائج مهمة[5].

كان وفد السكان الأصليين في حركة الشباب الفلسطينيين في أمريكا مهمًا، كونه مثّل انعكاسًا أخلاقيًا لتطبيق أُطُر الاستعمار الاستيطاني والانتماء إلى الشعوب الأصلية على النضال الفلسطيني. وبدلًا من قيام الفلسطينيين أنفسهم بإنشاء هذه الروابط وإعادة إنشاءها، دُعي مقاومون من السكان الأصليين من مناطق أخرى ليشاهدوا عن كثب آلية العنف عند الاستعمار والاقتلاع والفصل العنصري الصهيوني، بحيث يمكن أن تنتقل المُسميّات من مجرد لغة وصفية، إلى أدوات حقيقية للنضال الجماعي بصدى مُتعدد الاتجاهات. شهد الوفد الّذي شارك في الاستضافة في جنوب أفريقيا كيف تتحرّك حركة الشباب الفلسطيني في الولايات المتحدة، بين مجموعة عابرة للحدود من الفلسطينيين، داخل دولة صار تاريخها الخاص في الفصل العنصري والمقاومة بمثابة معيار حاسم للتقليد المُعاصر لحركة التضامن مع فلسطين، لا سيّما بعد صعود حركة المقاطعة.

وهكذا سمحَ السياق بتعميق الارتباط مع نضال جنوب أفريقيا ضدّ الفصل العنصري، الّذي لم يُغفل التاريخ السابق لاستعمار المستوطنين والسلاح الأيديولوجي لتفوق البيض، واللّذان سبق ودعّما دولة الفصل العنصري الحديثة. سمح هذا كله – إلى جانب إعادة النظر في الرأسمالية العرقية بوصفها تحليل مفيد للنظر في إطالة أمد دولة الفصل العنصري القائمة بحكم الأمر الواقع، في مواجهة انهيارها القانوني – بوجود عدسة مقارنة مفيدة بشكلٍ أقوى، للتفكير في ملامح الماضي والحاضر للنضال الفلسطيني.

أشارت تلك الرؤى أيضًا إلى مسارات مفاهيمية جديدة للمقاومة. ساهمَ وفد السكان الأصليين مثلًا في توضيح كيف أنّ **الانتماء إلى الشعوب الأصلية** يُمكن أن يعود بمنفعة سياسية بوصفه إطار للنضال الفلسطيني، لأن هذا الانتماء يدلُ على نوعٍ مُعيّن من الانتماء والهوية والارتباط المستندين إلى الأرض، وهو كما يُلاحظ

ومع ذلك، لا تزال هناك حاجة لعملٍ مقصود وشامل حول دور التداخل بين الرقابة العنصرية وبرامج المراقبة في إعادة إنتاج دولة الشرطة العنصرية، في الديناميات المجتمعية غير الشرطية بشكلٍ واضح.

5 يُنظر:

"From Turtle Island to Palestine: Indigenous Delegation Blog," *Palestinian Youth Movement*, 30/8/2018, accessed on 23/2/2021, at: https://bit.ly/3rYpG1j; "What Can South Africa Teach Palestinians?" *Palestinian Youth Movement*, 29/5/2019, accessed on 23/2/2021, at: https://bit.ly/2NAaUig; Loubna Qutami, "Moving Beyond the Apartheid Analogy in South Africa," *Middle East Research and Information Project*, 3/22/2020, accessed on 23/2/21021, at: https://bit.ly/3sbESsj

ستيفن سلايطة[6]، يختلف عن صلات عامة استخدمتها الصهيونية كنظيرٍ زائف للهوية الأصلية. وكذلك، يمكن أن يؤدي رفض الفهم المنقوص للأسس العنصرية للفصل العنصري في جنوب أفريقيا، إلى خلق خطوط رئيسة جديدة للمظاهر التاريخية والمعاصرة للنضال المشترك، والّتي تهدف إلى إنهاء الاستعمار بشكل مُطلق، بدلًا من الأنظمة القمعية المُقنّعة الجديدة والمستمرة في الدعوة إلى ما يسمى بـ «الدمج» و«المساواة».

كتب منظمو الوفد في ختام تقرير الرحلة إلى جنوب إفريقيا إلى حركة الشباب الفلسطيني: «حان الوقت الآن وأكثر من أيّ وقت مضى، لإعادة خلق إطار مناهض للاستعمار في سِياق القضية الفلسطينية، ونعتقد أنّ الدروس المستفادة والعلاقات المختلفة الّتي أُقيمت خلال رحلة الوفد، يمكن أن تساعد في تعزيز هذا الفهم لكفاحنا». هكذا يُصبح التعلّم من نضال الآخرين، أضمن وسيلة لتعميق فهمنا وتقوية أواصر المقاومة الشاملة.

6 يُميّز سلايطة خصوصية الانتماء إلى الشعوب الأصلية عن القرابة الاجتماعية والدينية، لكنه لا يُقلّل من قيمة هذه القرابة بشكل مُباشر كنوع من الارتباط بـ «الأرض المقدسة». وبدلًا من ذلك، يتحدّى سلايطة استخدامها كغطاء لتبرير الاستعمار وانتزاع الملكية منَ السكان الأصليين الفلسطينيين. هذا الشعور بـ «المنفعة السياسية المحتملة» ناقشه أيضًا بشكل جيّد أحمد عمارة ويارا هواري، اللّذان يكتبان ما يلي بخصوص الفروق المهمة بين أُطُر الاستعمار الاستيطاني مُقابل أُطُر السّكان الأصليين الفلسطينيين: في حين أن نموذج الاستعمار الاستيطاني يتناول بنية دولة اسرائيل المرتكزة على العنف المستمر ويصف الحالة المستمرة لاستبدال السكان الأصليين، إلا أن النهج الأصلاني يتحدث عن الحياة قبل هذه البنية، وعن المقاومة خلالها وعن الرؤى المستقبلية لتفكيك منظومة الاستعمار. يُنظر:

Steven Salaita, *The Holy Land in Transit: Colonialism and the Quest for Canaan* (Syracuse: Syracuse University Press, 2006,); Ahmad Amara & Yara Hawari, "Using Indigeneity in the Struggle for Palestinian Liberation," *Al-Shabaka*, 8/8/2019, accessed on 23/2/2021, at: https://bit.ly/3rWmyTI

في حين أنّ حركة الشباب الفلسطيني لم تتبنَّ رسميًا حتى كتابة هذه السطور موقفًا صريحًا تجاه السكان الأصليين، إلّا أنّ الوفد والمزيد من إجراءات التضامن المحلية للسكان الأصليين دفعت الحركة باستمرار، للتفكير في قضايا السكان الأصليين وعلاقتها بالنضال الفلسطيني. يُنظر مثلًا:

Aida Najar, "Palestinians join Standing Rock Sioux to protest Dakota Access Pipeline," *Mondoweiss*, 24/10/2016, accessed on 23/2/2021, at: https://bit.ly/2Zo4uFH; Nadya Raja Tannous & Omar Zahzah, "The Scarred Land: Settler Imprints and Indigenous Futures," *The Funambulist*, no. 20 (November-December 2018).

السكان الأصليون والفلسطينيون

من التضامن إلى النضال المشترك

يارا نصّار

«نطلُّ على أرضنا من حصى أرضنا، من ثُقوب الغيوم نطلُّ
على أَرْضنا، من كلام النجوم نطلُّ على أرضنا
من هواء البُحيرات، من زغب الذرة الهشّ، من
زهرة القبر، من ورق الحور، من كُلِّ شيء
يحاصِرُكم، أيُّها البيض، موتى يموتون، موتى
يعيشون، موتى يعودون، موتى يبوحون بالسرِّ،
فلتُمهلوا الأرض حتّى تقولَ الحقيقة، كُلَّ الحقيقة،
عنكُم
وعنّا...
وعنّا
وعنكُم!».

محمود درويش، «خطبة "الهندي الأحمر" ما قبل الأخيرة، أمام الرجل الأبيض»[1]

قد لا توجد طريقة أفضل لبدءِ هذا المقال من اقتباس رائعة محمود درويش الملحميّة والأيقونية «خطبة "الهندي الأحمر" ما قبل الأخيرة، أمام الرجل الأبيض». ليست قصيدته سوى واحدة من الكتابات العديدة التي تربط بين الكفاح الفلسطيني ونضالات السكان الأصليين. ففي حينِ أنّ التاريخ لا ينفك عن تخليد بطولات المُنتصر، من خلال استعادة قصصهم في الشعر والرواية والأدب. فمثلًا، يستعيد الكاتب الفلسطيني سميح مسعود في روايته **هوشيلاجا**[2] فلسطينيته، من خِلال شخصيّة رئيسية من الهنود الحمر وبالمثل، بدا الباحث الفلسطيني منير العكش وكأنّه يُقارب بين الشعبين الفلسطيني والهندي الأحمر في كتابه **دولة فلسطينية للهنود الحمر**[3].

1 محمود درويش، **أحد عشر كوكبًا**، ط 4 (بيروت: دار العودة، 1992)، ص 45.

2 سميح مسعود، **هوشيلاجا** (عمّان: الآن، 2021).

3 منير العكش، **دولة فلسطينية للهنود الحمر** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2015).

وكفلسطينيّةٍ اقتُلعت عائلتها من أرضهم في قرية بربرة المحتلّة عام 1948، أجدُ هذه المُقارنات ملموسةً إلى حدٍّ كبير، فرغم رفضي لأيّ نوع من استجداء التعاطُف أثناء الكتابة عن النضالات والمآسي المُشتركة، إلّا أنّني أعتقدُ أنّ هذه الكتابات لا تزال تُمثّل تهديدًا مُقلقًا للقوى الاستعمارية الاستيطانية، الّتي يسهلُ خلخلةِ شرعيّتها في زمن الترابط العابر للحدود الذي نعيشه.

عندما يقتصر التضامن على المستوى النظري والأكاديمي، فإنّه يوحي بأنّه مُحاولة لاستعادة الماضي السليب والبكاء على الأنقاض، ولا يرقى إلى مُستوى الفعل، وذلك بتوقُّع مصير مُماثل للشعوب الأصلية وتوجيه تحذيرات من مآلات حتمية، دون الانتباه إلى مدى أهمية هذه الكتابات في زيادة الوعي والحفاظ على الحقيقة حيّةً.

في المُمارسة العملية، يوجد قدر كبير من الجهود الّتي بُذِلَت للربطِ بين مآسي السكان الأصليين في جميع أنحاء العالم، بهدفِ إيجاد أرضية ومُستقبل مُشتركين للمقاومة. وفي ذلك، من المُهم الكشف عن مُبادرات التضامن الّتي تسعى إلى إشراك أُطُر مُختلفة من النضالات والجهود المُناهِضة للاستعمار، في سبيل تقديم الدعم لنضالات السكان الأصليين، ووضع هذه الجهود بين يديّ المُهتمين بمعرفة الحقيقة، وأولئك الّذين لديهم نيّة للمُشاركة في هذه المُبادرات. حيث يهدف المقال إلى استعراض تجارب تضامُنية مختلفة، من الشعوب الأصلية في أستراليا والولايات المُتّحدة بشكلٍ أساسي، مع الفلسطينيين، وذلك من أجل التعرُّف إلى آليات المُقاومة لدى هذه الشعوب، وطبيعة التضامُن بين الشعوب الّتي تتشارك المُعاناة نفسها، لتأسيس روابط تضامُنية عابرة للحُدود. يهدف المقال إلى تسليط الضوء على أفعال التضامن التي تطورت لتصبح نضالًا جماعيًا ضد رمزية وأفعال الاستعمار الاستيطاني.

من أستراليا وأمريكا نحو فلسطين

أوضحت الناشطة في مجال حقوق الإنسان من أصل بوندجالونج فينيسا تورنبول روبرتس Vanessa Turnbull-Roberts، أنّ أستراليا وفلسطين دولتان من بين جميع دول العالم تخضعان لإلغاء الأرض، والدولتان الوحيدتان اللّتان رُوِّجَ أنّهما «أراضٍ بلا شعب terra nullius»، مُضيفةً أنّ حالة الفلسطينيين قريبة جدًّا ممّا حدث للأمم الأولى في أستراليا، فكلاهما ناضل في وجه المُصادرة والاستعمار والإمبريالية على أراضيهم[4].

وفي ذات السياق، ترى عضو حركة الشعب الأحمر The Red Nation ميليسا سو Melissa Sue، أنّ الأمم الأولى القابعة تحت احتلال الولايات المُتّحدة عانوا من العديد من الفظائع الناتجة عن الاستعمار الاستيطاني والسجن الجماعي لشبابٍ من السكان الأصليين، كما عاش الفلسطينيون نفس المُعاناة. من هذا المُنطلق، تلتزم حركة الشعب الأحمر بالتضامن مع فلسطين لفضح ما تفعله الامبراطوريات الاستيطانية بارتكاب

4 «السكان الأصليين في أمريكا واستراليا والتضامن مع القضية الفلسطينية»، **الميادين**، 10/6/2018، شوهد في 1/3/2021، في:

https://bit.ly/3bJgDLj

الإبادة الجماعية ضدّ الناس في الولايات المُتّحدة وفلسطين[5]. وتعهّدت سو بالتزام الحركة بتحرُّر الفلسطينيين من خِلال دعم حقّ العودة، ودعم المُقاطعة، وإظهار التضامن مع الفلسطينيين في الشتات، ودعم المُقاومة الفلسطينية بكافة أشكالها[6].

أقامت الحركات الفلسطينية روابط عميقة مع مجموعات السكان الأصليين، ابتداءً من سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، مثل حركة التحرير الوطني البورتوريكي، وحركة الهنود الأمريكيين، وحركة القوّة السوداء، فضلًا عن الحركات الّتي ناضلت من أجل إنهاء الفصل العنصري في جنوب أفريقيا[7]. واستمرّت هذه العلاقات في أعقاب اتّفاقية أوسلو (1993). لكن بسبب الطبيعة غير المُستقرّة لهذه المجموعات، مالت العلاقة إلى أن تكون أقلّ تنظيمًا. وعملت العديد من الشخصيات الفلسطينية، مثل أستاذة الدراسات الإثنية في جامعة ولاية سان فرانسيسكو رباب عبد الهادي بجدٍّ عبر المُنعطفات النيوليبرالية لتحشيد التضامن مع فلسطين، من خلال نشر الوعي السياسي بين أطفال الجيل الجديد حول الإرث التاريخي العابر للحدود للنضال المشترك العالمثالثي[8].

لقد تزعمت عبد الهادي مجموعة من السكان الأصليين والنساء ذوات البشرة الملوّنة والتي زارت فلسطين عام 2011، فشهدوا بأعينهم الظروف الّتي يُكافح الفلسطينيون في ظلّها ضدّ إسرائيل ومشاريعها للتطهير العرقي والفصل العنصري. الأمر الذي دفعهن للانخراط في تأييد ودعم حركة المُقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات BDS من خِلال المُمارسة[9].

وفي أمريكا اللّاتينية، بدأت المُنظّمات الفلسطينية والسكان الأصليين الدعم المُتبادل لبعضها البعض منذُ مُنتصف العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين، وبالتحديد بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية عام 2000، من خِلال تنظيم فعاليات مُشتركة بانتظام، مثل الاحتجاجات والمهرجانات والفعاليات والمعارض. في تشيلي وبوليفيا، أُقيمت العديد من الفعاليات الّتي ساهمت في تشكيل شبكات اجتماعية بين الشعبين. وفي تشيلي، أصدرت مُغنية الراب أنيتا تيجو Anita Tijoux بالاشتراك مع الفلسطينية شادية منصور، أُغنية عام 2014 بعنوان «نحنُ الجنوب Somos Sur»، والّتي دعت إلى قِيام دولتين مُستقلّتين.[10] تعتقدُ المُغنّيتان كِلا البلدين يُقاتلان ضدّ

5 المرجع نفسه.

6 "The Red Nation Supports the Liberation of Palestine and BDS - The Liberation of Palestine Represents an Alternative Path for Native Nations," BDS, 7/9/2019, accessed on 28/2/2021, at: https://bit.ly/2NLujgQ

7 Loubna Qutami, US Palestine Solidarity: Reviving Original Patterns of Political Engagement," al-Shabaka, 4/1/2018, accessed on 28/2/2021, at: https://bit.ly/3q5n1S6

8 Ibid.

9 Ali Abunimah, "After witnessing Palestine's apartheid, Indigenous and Women of Color feminists endorse BDS," *The Electronic Intifada,* 12/7/2011, accessed on 28/2/2021, at: https://bit.ly/3b2TT9U

10 Cecilia Baeza, "Palestinians and Latin America's Indigenous Peoples: Coexistence, Convergence, Solidarity," *MERIP,* 2015, accessed on 28/2/2021, at: https://bit.ly/3uEr1wm

«رُعاة العُنف الّذين أبقوا أنفسهم عبر التاريخ»[11]. وفي بوليفيا، ساعد انتخاب إيفو مورالیس Evo Morales عام 2006، وهو أوّل رئيس من السكان الأصليين في البلاد، على زيادة الدعم لفلسطين على المُستويين الشعبي والدولي[12].

دينيه والموهوك والفلسطينيون: المقاومة بوصفها جسرًا للتضامن

تُمثّل مُبادرة تضامن دينييه مع فلسطين DSWP جُهدًا كبيرًا لتضامُن شعب نافاجو في دينييه بيكيه (أُمّة نافاجو) مع الفلسطينيين. تسعى هذه المُبادرة، كما ذكرت ميلاني ك. يازي، إلى «تعبئة التعاون الّذي يُقاوم ويُعالج مسألة عُنف الاستعمار الاستيطاني، من خِلال التنسيق المُباشر مع السكان الأصليين وربط شعب دينيه وغيرهم من السكان الأصليين بالفلسطينيين»[13]. زُرِعَتْ بذور هذه الحركة في ربيع عام 2015، عندما اجتمع مؤسّسوها في مؤتمر دراسات نافاجو العشرين للتحاوُر مع الناس والقادة والمُفكّرين في دينييه. أطلقوا على جلستهم اسم «مُقاومة الاحتلال وبناء التضامن: العلاقة المُتنامية بين دينيه وفلسطين». تعتقد الحركة أنّ تحرير الشعوب الأصلية في الولايات المُتّحدة يصبُّ في تحرير الفلسطينيين أيضًا، وأنّ الأُمّتين مُرتبطتان ببعضهما البعض. وتعمل المُبادرة على تجسير النضالات المحلية وتوجيهها نحو تحرير الفلسطينيين، من خِلال أشكال مُختلفة من التثقيف العام والشعبي، سواء كانت نضالات دينييه أو أباتشي أو هوبي أو أوادهم[14].

ما يُميِّز مُبادرة دينييه، أنّه رغم أهمية حركات التضامن الوطنية وجهود التضامن الأُخرى مثل BDS، لا تزال السياقات المحلية تتطلّب المزيد من الاستراتيجيات للمُقاومة الجذرية الّتي بدورها تدعم وتربط السكان الأصليين ببعضهم، بدلًا من مُجرّد تقديم الدعم الرمزي، ممّا يجعل مُبادرة دينييه قوّة عابرة للحدود الوطنية ضدّ المشاريع الاستعمارية الاستيطانية. وتهدفُ الحركة أيضًا إلى القضاء بشكلٍ جذري على جميع أشكال الإرهاب الّتي تُمارَس ضدّ السكان الأصليين أو الفلسطينيين داخل دولهم الاستعمارية الاستيطانية، سواء على أيدي الشرطة أو المواطنين، والّتي بدورها تسعى إلى إضفاء الشرعية على وجودهم من خِلال التعذيب والاحتجاز وتقطيع الأوصال والقتل واقتلاع السكان الأصليين الّذين يُعتقد بأنّهم يُعرِّضون الدولة للخطر[15].

قام فنان من دينييه يُدعى ريمي Remy بوضع صور على جدران مدينة سانتا في الولايات المُتّحدة عام 2020 تكريمًا للشعب الفلَسطيني الرازح تحت الاحتلال. وشاركت حركة الشعب الأحمر في تجمع في نفس المنطقة، للاعترافِ بمُعاناة السكان الأصليين، والاحتجاج ضد الإمبريالية والرأسمالية والاستعمار الاستيطاني. وقد

11 Ibid.

12 Ibid.

13 Melanie K. Yazzie, "Solidarity with Palestine from Diné Bikéyah," *American Quarterly,* vol. 67, no. 4 (2015), p. 1007.

14 Ibid., pp. 1012.

15 Ibid., pp. 1012 - 1013.

تسبّبت رسومات ريمي ببعضِ الجدل، حيث صوّرت المُسعفة والمُمرّضة الفلسطينية الّتي استشهدت في مسيراتَ العودة يوم 1 حزيران/ يونيو 2018، والطفل فارس عودة الّذي قتله جيش الاحتلال الإسرائيلي قُرب معبر المنطار شرق قطاع غزّة يوم 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 2000. فأوّلًا، تُفرَضُ قيود من قِبَلِ الحكومة على نوع فن السكان الأصليين المسموح به. ثانيًا، أظهرت الصور قِيام الإسرائيليين بمُعاملة الأطفال والنساء الفلسطينيين بوحشية. وبالفعل، اتَّهم الصهاينة في المنطقة الصور بأنّها «مُعادية للسامية» وأنّها «تروِّج للدماء»، وكِلا الاتّهامات تميل إلى نزع الشرعية عن الانتقادات الموجَّهة لإسرائيل[16].

رزان النجار وفارس عودة في مدينة سانتا. المصدر:

"«Our Resistance Is Global, and So Are We»: The Red Nation-Santa Fe Stands with Palestine," *The Red Nation*, 18/2/2020, accessed at 28/2/2021, at: https://bit.ly/2ZXjsmr

بالتأكيد، تُشكِّل الصدمة والمُقاومة المُشتركة رابطًا وثيقًا لتمكين وتقوية النضال المشترك ضدّ الاستعمار الاستيطاني بين الفلسطينيين والسكان الأصليين. شهد أسطول الحرّية المُتجِّه إلى قطاع غزّة بحرًا عام 2010، والّذي هدف إلى كسر الحصار عن مدينة غزّة على سبيل المثال، مُشاركات لنُشطاءِ من السكان الأصليين من كندا، مثل روبرت لوفليس Robert Lovelace ولاري كومودور Larry Commodore، لإثباتِ تضامُنهم مع الفلسطينيين. من ناحيةٍ أُخرى، دعم النُشطاء الفلسطينيون ونُشطاء الموهوك في كندا بعضهم البعض بالتناوب، فرُفِعَت أعلام الموهوك في المُظاهرات الفلسطينية، ورُفِعَتْ أعلام فلسطين عاليًا على أرض الدول الست بالمثل. كذلك، شارك نشطاء مثل جون بونكور John Boncore خِلال إضراب بحيرة جوستافسن في تعزيز تضامُن السكان الأصليين في كولومبيا البريطانية. وانضمّ بونكور أيضًا إلى والديِّ راشيل كوري على خشبة المسرح في فانكوفر عام 2003 للاحتفال باليوم الدولي للتضامن مع الفلسطينيين[17]. في أستراليا أيضًا، رُفِعَ علم السكان الأصليين في التجمعات الفلسطينية وبين السكان الأصليين.

16 «Our Resistance Is Global, and So Are We»: The Red Nation-Santa Fe Stands with Palestine," *The Red Nation*, 18/2/2020, accessed at 28/2/2021, at:

https://bit.ly/2ZXjsmr

17 "Solidarity between Palestinians and Indigenous Activists has Deep Roots," *The Palestine Chronicle*, 18/2/2020, accessed on 28/2/2021, at:

ويُمكن طرح مثال آخر على النضالات المُشتركة، وهو الردّ على مُحاولات الإذاعة الوطنية CBC لاستهجان استخدام كلمة فلسطين في عام 2020، فقد أصدرت الشاعرة والناشطة لِي ماراكل العضو في أمة ستولو والمُدافعة عن القضية الفلسطينية لزمنٍ طويل، بيانًا لإدانةِ هذا الفعل، وأصرّت على أنّ «السكان الأصليين في كندا يعرفونَ أنّ هذا الأمر هو فقط وسيلة لاستئصالِ آمال الشعوب الأصلية بالدولة، ففلسطين عاشت هذه التجربة رغم أنّ المشهدَ قد يكونُ مُختلفًا، لكن الاستهجان (بمعنى آخر: الأرض الخالية Terra nullius) يكون دائمًا هو النتيجة». ولم تؤيّد ماراكل كذلك هذا الاستهجان ورفضت مُحاولات القضاء على الفلسطينيين[18].

لقد تجاوز التضامن بين الفلسطينيين والسكان الأصليين عبر العالم مُجرّد الدفاع عن الحقِّ الأساسي في الحياة والمُقاومة البسيطة لتهديداتِ الاستعمار الاستيطاني، ليشمل دعم أيّ نوع من التهديد الّذي قد تواجهه هذه الشعوب. على سبيل المثال، وقفت حركة الشباب الفلسطيني PYM في الولايات المُتّحدة إلى جانب أمة سيوكس العظيمة، وستاندنج روك سيوكس، وغيرهم من السكان الأصليين، لمُقاومة خط أنابيب داكوتا DAPL، الّذي يمرُّ عبر ساوث داكوتا، ونورث داكوتا، وإلينوي، وآيوا، عبورًا بنهرِ ميسوري. ويُنظَر إلى DAPL على أنّها فرصة لتدمير بيئة السكان الأصليين وغزوّ الأرَض والسكان الأصليين من خِلال تدمير الأرض والمياه، مع منح السكان الأصليين وصولًا مُقيَّدًا إلى الموارد وحِرمانهم من سلطتهم السيادية[19]. في موقفٍ مُماثل، أدانت PYM أيضًا بناء خط أنابيب Coastal Gaslink عبر أرض Wet'suwet'en، وطلبت من الحكومة الكندية احترام التزامها بإعلانِ الأُمم المُتّحدة بحُقوقِ الشعوب الأصلية UNDRIP وسيادة شعب Wet'suwet'en[20].

لماذا التضامن بين السكان الأصليين؟

يُجادل البعض بأنّه من المُتوقّع أن يشهد الفلسطينيون مآلًا مُشابهًا لما عاشه الأمريكيون الأصليون[21]. في الواقع، يُعدُّ إجراء مُقارنات لكلتا التجربتين أمرًا مُهمًا لإيجادِ التقاطُع بين المسارين. ومع ذلك، فإنّني أؤيّد ستيفن سلايطة في تصوُّره بأنّ

https://bit.ly/37VQYxL

18 "Indigenous activist Lee Maracle on CBC erasure of Palestine," *Canada Palestine Association*, 24/1/2021, accessed on 28/2/2021, at:

https://bit.ly/3r2ALhH

19 "PYM – USA Stands with Standing Rock. No to the Dakota Access Pipeline," *Palestinian Youth Movement*, 9/7/2016, accessed on 28/2/2021, at:

https://bit.ly/37Vvi5o

20 "The Palestinian Youth Movement Stands with Wet'suwet'en!," *Palestinian Youth Movement*, 24/2/2020, accessed on 28/2/2021, at:

https://bit.ly/2O6bCUT

21 يُنظَر مثلًا:

Ramzy Baroud, "The Native American and the Palestinian: A Spirited Fight for Justice," *Counter Punch,* 15/9/2016, accessed on 28/2/2021, at:
https://bit.ly/3b1GOxK

دعم السكان الأصليين لنظرائهم لا ينبغي أن يكون بهدفِ تجنُّب مصير مُماثل أو تجنُّب هزيمة الاستعمار الاستيطاني[22]. يؤكّد هذا المنطق بالفعل على وجود الاستعمار الاستيطاني. في الواقع، يجبُ أن يرتكز التضامن المُتبادل على الثقة بأنّ السكان الأصليين يُمكن أن يكونوا «أنموذجًا للمُقاومة والبقاء للفلسطينيين»[23]، بمعنى أنّه يُمكِنهم تعلُّم تكتيكات واستراتيجيات البقاء، والّتي من شأنها تعزيز الاستجابة الجماعية ضدّ الاستعمار الاستيطاني، وبناء شبكة عالمية للتضامن بين الشعوب الأصلية وتوسيع وتقوية النضال الفلسطيني ضدّ «إسرائيل» الاستعمارية.

وعلى الرغم من حقيقة أنّ هذا الاستعمار كان فعلًا إحلاليًّا جرى بوحشيةٍ منذُ زمن طويل، لكنّه لا يزال مُستمرًّا حتّى اليوم من خِلال بنية عسكرية ومُمارسة استعمارية، والمُتجلّي على سبيل المثال في سياساتٍ مثل نقاط التفتيش والمُراقبة ووحشية الشرطة والتهجير والتدمير البيئي والحبس الجماعي وسرقة المياه والموارد وتدنيس المدافِن والمحوّ والاستيلاء الثقافي[24]. من هذا المُنطلق، فإنّ تجنُّبِ حِيَل ومُحاولات السيطرة بشكلٍ غير مُباشر على الشعوب الأصلية، والسعيّ لابتكار طُرُق وأساليب لخداع القوى الاستعمارية، هو وسيلة للإفلات من قتلِ السكان الأصليين وبناء حركات للتضامُن بين مُختلف الشعوب الأصلية. لذلك ليسَ من المُستغرَب أنّ المُجتمعات الّتي عانت من الاضطهاد باتت تتّجه بشكلٍ مُتزايد نحوَ دعم فلسطين.

22 "The Native American model of Palestine's future," *The Electronic Intifada*, 10/3/2016, accessed on 28/2/2021, at:

https://bit.ly/3kwd6nr

23 Ibid.

24 "Indigenous Struggles from Turtle Island to Palestine," *US Campaign for Palestinian Rights*, accessed on 28/2/2021, at:

https://bit.ly/3uGbGf2

أركيولوجيا التضامن بين الفلسطينيين والسكان الأصليين[1]

روبرت واريور

كانت المرة الأولى التي شاركتُ فيها بمقاطعة أكاديمية لـ «دولة إسرائيل» في حزيران/ يونيو 1986، والتي صادفت الصيف الثاني لي كعالم آثار متطوع في قسم الآثار والمتاحف في «إسرائيل» من خلال كليتي في جامعة بيبردين بكاليفورنيا، جنبًا إلى جنب مع طلاب من جامعة نوتردام وكلية كارلتون وجامعة كولومبيا البريطانية، حيث أمضينا أربعة أسابيع في مدرسة ميدانية على الشاطئ الشمالي لبحيرة طبريا (بحر الجليل)، قمنا خلالها بالتنقيب عن هياكل من قرى تعود إلى العصر العباسي والأموي والروماني في موقع كفرناحوم، وهي مدينة صغيرة تعود إلى القرن الأول الميلادي ويبلغ عدد سكانها 1500 نسمة، يُشار إليها في العهد الجديد على أنها «مدينة» يسوع المسيح (متى، الفصل 9: 1).

مع قُرب انتهاء ذلك الصيف الثاني في كفرناحوم، قرر مُرشد التنقيب السماح لمدرستنا الميدانية بأن تكون جزءًا من مشروع إنتاج فيلم جنوب أفريقي، والذي رأى فيه بعضنا على أنه يُطبّع أفعال «دولة إسرائيل» في معاملتها للفلسطينيين، وكذلك نظام الفصل العنصري المستمر في جنوب أفريقيا. لذا، رفضت مجموعة منا المشاركة لاحتمالية تفسير ذلك كموافقة ضمنية على تجريد الفلسطينيين لأراضيهم وقمع غير البيض في جنوب أفريقيا.

أنا متأكد تمامًا أن أحدًا لم ينشر أي شيء عن رفضنا هذا، ولن أدّعي أنه كان حجر دومينو سقط ضمن سلسلة من الأفعال المتماثلة، بل مثّل هذا الحدث منعطفًا حاسمًا تشكّل على إثره تفكيري والتزامي بسياسة أصلانية Indigeneity معينة، تشملُ التضامن مع الفلسطينيين كشعب. يركز هذا المقال على الأزمات المُتعلقة بالأصلانية في العالم الأكاديمي، وعلى وجه الخصوص يتطرق إلى هذين الصيفين في كفرناحوم، وفعل الرفض الذي حدث خلال الأسبوع الأخير من التنقيب عام 1986.

(1) الفصل مُقتطف من مقال أوسع يعملُ المؤلف على إنجازه.

خلال القرن التاسع عشر، وعد علم الآثار التوراتي بإثبات أن الكتاب المقدس العبري والعهد الجديد المسيحي يتّسقان مع الأدلة المادية للحفريات، وأن علم الآثار من شأنه تعزيز الأحداث التاريخية الواردة في الكتاب المقدس. بخلاف النقوش التي تذكر أمورًا مثل أسماء بعض ملوك إسرائيل القدامى وبعض الحملات العسكرية والمدن البارزة، لم يؤكد علم الآثار إلّا القليل مما جاء في الكتاب المقدس، ممّا مثّلَ خيبة أمل كبيرة لأولئك الذين استند إيمانهم إلى الدقة التاريخية للكتاب المقدس. وبحلول ثمانينيات القرن الماضي، بات هدف علماء الآثار الذين يعملون في أماكن مثل كفرناحوم، تعميق الفهم العلمي للشرق الأدنى القديم[2].

كان مُدربنا مرجعًا رائعًا لفهم التاريخ القديم والطرق التي يتّصل بها مع عصرنا الحالي، وهو عالم الآثار فاسيليوس تازفيروس sorefazT soillisaV (6391-5102)، الذي جاء إلى القدس من جزيرة ساموس اليونانية في عام 1950 عندما كان في سن الرابعة عشرة لدراسة اللاهوت، الذي قاده لقطع نذور رهبانية في نهاية المطاف، ممّا نصّبه كاهنًا أرثوذكسيًا يونانيًا[3]. لقد تراجع فيما بعد عن نذوره وترك الكهنوت، ثم حصل على شهادة الدكتوراه في علم الآثار من الجامعة العبرية.

عندما ذهبت مدرستنا الميدانية إلى القدس في رحلة ميدانية طويلة خلال عطلة نهاية الأسبوع، كنت ممتنًا بشكل خاص لخبرةٍ فاسيليوس في كنيسة القيامة، وهي مجمع من المباني التي تضم مواقع للحج، حيث أُرسِلَت هيلينا من قِبَل ابنها الإمبراطور قسطنطين إلى القدس بحثًا عن قبر يسوع، وحيث أبلغت هيلينا بوجود ثلاثة صلبان وقبر. لقد نشأت الكنيسة حول هذه المواقع، والتي كان يُنظَر إليها من قِبَلِ الكثيرين على أنها المواقع الأكثر قُدسيةً في العالم المسيحي بسبب ارتباطها المفترض بموت يسوع ودفنه وقيامته. ينتهي طريق الآلام – وهو الشارع الذي يتبع درب الصليب الذي يُخلِّد ذكرى الأحداث التي أدت إلى صلب يسوع – عند الكنيسة، بينما يوجد عدد من المحطات الأخيرة في الداخل. وعلى مدار 1700 عام منذ اكتشاف هيلينا وأوامر قسطنطين ببناء كنيسة في الموقع، أصبحت كل زاوية وركن ورواق داخل الكنيسة وخارجها وبالقرب منها موقعًا لمعبدٍ أو ضريح يُخلِّد ذكرى الأحداث في قصة موت اليسوع والكثير غيره – خاصّة هيلينا – ممّن هم مرتبطين بتأسيس الكنيسة.

يواصل أتباع التقاليد المسيحية المختلفة إثارة هذه العداوات القديمة على الأماكن التي تُخلِّد ذكرى الأحداث التي لا يمكن لأحد إثبات حدوثها يقينًا في هذه المواقع بالذات، أو إن كانت قد حدثت أصلًا. ليست هذه بالطبع الصراعات الوحيدة في القدس أو فلسطين و»إسرائيل». خلال الصيف الأول لي في كفرناحوم، قمت بمحاكاة علماء الآثار بالكلية الذين كانوا متمرسين في تركيزهم على البقايا المادية للماضي بدلًا من اتّخاذ موقف من النزاعات المعاصرة من حولنا. ولم يتجاهلوا تلك الصراعات تمامًا،

2 أثبتت الفترة التي تلت عام 1967 أيضًا أنها منعطف حرج لعلم الآثار الإسرائيلي.

3 "Strata: Milestones: Vassilios Tzaferis (1936–2015)," *Biblical Archaeology Review*, vol. 43, no. 1 (May/June 2015).

مشيرين إلى أمور مثل تنامي أعداد المستوطنات الإسرائيلية على الأراضي الفلسطينية وما يصاحب ذلك من انتشار لشبكات الطرق ونقاط التفتيش التي تفصل وتحمي الإسرائيليين أكثر من الفلسطينيين. ومع ذلك، بدا أن اعترافهم يشير إلى أن هذه المشكلات، مهما كانت مزعجة أو حزينة، من الممكن أن تُثير قلق شخص آخر غيرهم.

كنا نرى الشعب الفلسطيني فعليًا في كل مكان نذهب إليه تقريبًا، على الرغم من معرفتي لاحقًا بالطرق العديدة التي يعيشون فيها في الهامش. في عام 1985، كان الوصول إلى الضفة الغربية لا يزال متاحًا بالسيارة، مع غياب الجهاز العسكري الذي صعّب التنقّل، سواء عبر «الخط الأخضر» الذي يرسم حدود إسرائيل لعام 1948، أو في جميع أنحاء الضفة الغربية المحتلة. خلال رحلتنا الميدانية إلى القدس، أقمنا في فندق الأرض المقدسة الذي يقعُ في القسم ذي الأغلبية العربية من القدس، على بُعد بضع بنايات شمال البلدة القديمة. يبدو أن علماء الآثار من الولايات المتحدة عادةً ما بقوا في تلك المنطقة، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى أن المدرسة الأمريكية للبحث الشرقي تواجدت في ذلك الجزء من المدينة، وأيضًا لأن الفنادق هناك كانت أقل تكلفة.

كنا نرى الفلسطينيين يوميًا في طبريا، وبينما كنا نحفر في كفرناحوم، كانت الحفريات الفرنسيسكانية على الجانب الآخر من الجدار تعتمد على العمال الفلسطينيين. وباستثناء التواصل مع الرجال الذين قادوا عربات الطعام بالقرب من نُزُل الشباب، كان الوجود العربي محدود ومُجرّد في المقام الأول. لا يعني ذلك أننا كوّنا الكثير من الأصدقاء اليهود أو المسيحيين غير العرب أيضًا. مع ذلك، كان معظم الأشخاص الذين قاموا بالتنقيب على صلة بدرجاتٍ متفاوتة بالمسيحية، وباستثناء فاسيليوس، كان علماء الآثار الثلاثة أو الأربعة الآخرون الذين عملنا معهم من دائرة الآثار والمتاحف من اليهود الإسرائيليين. كان ميخائيل، الذي التحق بكلية الدراسات العليا في الولايات المتحدة، هو الذي تعرفنا عليها بشكل أفضل لأن لغته الإنجليزية كانت جيدة جدًا.

ما لم يكن مجردًا هو دنو الصراع الجيوسياسي الذي كان متواصلًا على شمالنا وشرقنا. تقع كفرناحوم على بُعد أميال قليلة من مرتفعات الجولان، وهي منطقة تقع على الحافة الغربية على طول الجانب الشرقي من البحيرة، أما الحدود اللبنانية فكان طولها أقل من خمسين كيلومترًا إلى الشمال مع تحليق الغراب.

خلال الصيف الثاني من الحفر في كفرناحوم، أصبح الشعب الفلسطيني وحياته تحت الاحتلال أكثر وضوحًا بالنسبة لي ممّا كان عليه العام السابق، إذ قررت مجموعة صغيرة منا، نحن الآتون من جامعة بيبردين، الوصول قبل أسبوع من بدء عمليات الحفر، حيث قبلنا دعوة من صديق إحدى أصدقائنا للإقامة في منزله في مدينة المحتلة عام 1948، الواقعة بين القدس وتل أبيب. قضينا معظم ذلك الأسبوع مع شبان فلسطينيين عرّفنا عليهم الرجل الذي كنا باستضافته، وكانوا مثلنا في العشرينيات من العمر.

أما مُضيفنا، وهو شخص من الولايات المتحدة، فقد أخذنا في ذلك الأسبوع إلى مراكز التسوق للقيام بأشياء مثل تجربة البرغر في بيرجرناش Burgeranch وماكديفيدس McDavids، كما اصطحبنا أصدقاؤنا الجدد الفلسطينيون إلى منازل أصدقائهم وأقاربهم في الرملة، حيث كنا نجلس ونتحدث مع مُختلف العائلات في غرف جلوس مخصصة للزيارات والطعام والشراب.

هُنا، وبينما كنا نستمتع بالزيارات المختلفة التي كنا نقوم بها كل يوم، أدركتُ للمرة الأولى، أن الأشخاص الذين استضافونا لم يكونوا يتعرّفون إليّ من باب الفضول، بل كشخص يشعرون معه بالتقارب عبر الزمان والمكان. لم يأتِ هذا التقارب من تاريخنا المُشتركً من السلب فحسب، بل من الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في الكشف عن هذا السلب أيضًا. كنت أعرف بشكل مُبهم أن الولايات المتحدة كانت ترسل الكثير من المساعدات الخارجية إلى الحكومة الإسرائيلية، لكن خلال ذلك الأسبوع في الرملة أيقنت أن الأشخاص الحقيقيين ممن يذخر تاريخهم بالفخر، كانوا في أسفل سلم اهتمام هذه المساعدات.

لقد كان هؤلاء، كما أعرفُ الآن، هم المواطنون الفلسطينيون في إسرائيل، أي أولئك الذين لا يعيشون على قدم المساواة مع الأغلبية اليهودية في إسرائيل؛ الذين يعيشون في الرملة وأماكن أخرى على جانب الخط الأخضر الذي تدّعي إسرائيل بأن لها أحقية فيها، وأولئك الذين شغروا وظائف في الأراضي المحتلة، أو عملوا في وظائف منخفضة الأجر غالبًا، أو لم يكن لديهم عمل على الإطلاق. لم تسنح الشهادات الجامعية لهؤلاء، خاصة الدراسات العليا، إلا بالقليل لتعزيز فرصهم في العمل بوصفهم أفراد فلسطينيين.

في نهاية الأسبوع التالي كنتُ في طبريا، جالسًا على الشرفة الطويلة أكتب في مُفكّرتي الميدانية. لم أكُن أُدرك حينها إلى أي مدى سأرى فلسطين بشكلٍ مختلف. بدأ الأمر بلقاءاتٍ يومية مع أشخاص فلسطينيين مثل بائعي الفلافل في عربات الطعام التي كنا نتردد عليها في طبريا، أو في السوق المقابل لنُزلنا، أو بين الناس في الناصرة وبلدات أخرى في الجليل. لم يعُد هؤلاء بالنسبة لي مجهولين، بل أفراد لديهم قصص؛ قصص لم أكن أعرفها قط.

وبالعودة إلى كفرناحوم، بدأ الطلاب يتهامسون حول المنطقة التي كان فاسيليوس وعلماء الآثار الآخرين ينقبون فيها بهدوء. عثرت إحدى مجموعاتنا على عظام، ومع استمرار التنقيب، بات من الواضح أن العظام تعود لبقايا بشرية من إحدى المقابر. لم يُسمح للطلاب بالمساعدة في تنبيش المقابر، إلا أننا تمكنّا من الاقتراب بما يكفي لرؤية شكل الهيكل العظمي البشري يتكشّف بينما تُزال عنها الأتربة بشقِّ الأنفُس. كانت السرية في هذا التنقيب، والتي كشفناها بطريقةٍ ما، تدور حول توقيت هذا الاكتشاف. لقد قرر فريق علماء الآثار وأعضاء هيئة التدريس إغلاق موقع كفرناحوم والانتقال إلى بانياس، وهو موقع غير مُنقَّب وفيه معبد للإله بان (أعمدة وصور أخرى كانت معلقة فوق الأرض حرفيًا) شمال مرتفعات الجولان. كان من شبه المؤكد أن تتسبب حفريات

المقابر بمشاكل وتأخيرات – حيث ستدخل قوانين حماية الموتى من البناء أو علم الآثار ضمن اللعبة، كما سيتورط رجال الدين، وستتسبب القرارات المتعلقة بكيفية المضي قُدُمًا بصداعٍ كبير.

برز فاسيليوس كعالم آثار عندما قام في عام 1968 بالتنقيب عن بقايا جنائزية للشخص الوحيد الذي يُمكن التعرّف عليه والذي مات عن طريق الصلب الروماني، لذلك كان يعرف الكثير عن المدافن. بالنسبة للكثيرين منا، كان الهيكل العظمي الجديد مصدر قلق. إن غربلة أنقاض منزل شخص ما بعد 1800 عام من إقامتهم فيه كان في كفّة، وكان التنقيب عن عظامهم في كفّة أخرى.

انتشرت ذات صباح أنباء تفيد بأن فاسيليوس قد تعرف على مكان القبور. كانت آثار عُقد من العصر العباسي أو الأموي واضحة عند خط عنق الهيكل العظمي. بعد ذلك بوقت قصير، اختفت القبور ووُضعت في صناديق خاصة احتفظ بها طاقم فاسيليوس حرصًا على القطع الهشة. لقد حملوا الصناديق بعيدًا إلى مركبات حكومية في ساحة انتظار الدير، ثُم أخرجوها. إنّ بعض من الردود التي حصلنا عليها جرّاء طرح أسئلة على مدرسينا، ومن التفكير في الأسئلة التي لن يناقشوها، أصبح من الواضح أن صناديق العظام تلك كانت متجهة إلى منشأة تخزين في مكان ما في تل أبيب أو القدس، وكان لدينا انطباع بأن هذه القبور لن تُذكر في أيٍ من سجلّات الحفريات.

لقد تغير الاهتمام الشديد بالقبر فجأة عندما تبين أنه عربي. إن نفس اللامبالاة التي رأيتها على وجه موظف البلدية في مكتب تصاريح الرملة حلت محل الاهتمام النشط الذي تحلّى به علماء الآثار الإسرائيليين في السابق، إذا ما تم تعريف القبر على أنه مسيحي أو يهودي. في تلك الحالة، كانت العظام ستبقى مغطاة طوال فترة الإبلاغ عن الحفريات. من ناحية أخرى، كانت عظام العرب مصدر إزعاج، وأعتقد أنها لا تزال موضّبة مثل تابوت العهد في نهاية فيلم سارقو التابوت الضائع eht fo srediaR krA tsoL (1891).

قررت مجموعة صغيرة منا الانضمام إلى امرأة من نوتردام امتلكت خطة لكيفية رفض المشاركة في تطبيع الفصل العنصري واضطهاد الفلسطينيين. عندما استيقظنا في صباح اليوم التالي، أخبرنا المشرفين بأننا مرضى وأننا سنشارك في فعاليات غسيل الفخار في ذلك اليوم.

لا يمكنني كتابة ذكريات محددة لما حدث ذلك الصباح. لم تكن التفاصيل درامية. لم نقف ونستنكر أي شيء أو أي شخص. بعد كل شيء، كنا ضيوفًا في بلدٍ أجنبي يبعدُ آلاف الأميال عن الولايات المتحدة. كنا نمثل جامعاتنا أيضًا، وبشكل عام نحب ونحترم علماء الآثار الذين عملنا معهم. لم يكن أي منا يميل إلى نشر احتجاجاتنا كثيرًا، رغم أن الجميع اكتشف أنه لم يكن أي منا مريضًا. كما أدرك معظمهم أن ما كنا نفعله هو استجابة لوصول طاقم من جنوب أفريقيا لتصويرنا. من الواضح أن فاسيليوس والإسرائيليين الآخرين من دائرة الآثار والمتاحف كانوا ينظرون إلى ما فعلناه بازدراء. لم

يجر الحديث كثيرًا عن أي شيء حول احتجاجنا في حضورنا، لكن مجموعة من طلاب الجَامعات الذين كانوا يعيشون في أماكن قريبة لمدة شهر اقتربوا من الاشتباك بعمق، فعرفنا أن زملائنا الطلاب سيتحدثون عنا مع بعضهم البعض. وإذا لم يكن هناك شيء آخر، فقد انزعج البعض منهم على الأقل لأن شخصًا ما في مجموعتك الصغيرة المكونة من ثلاثة إلى ستة أشخاص يجلس في الخارج، وهو ما يعني أن يقوم شخص واحد فقط بالعمل الشاق في ذلك اليوم. آمل أن يكون غيابنا قد دفع البعض في مجموعتنا إلى التفكير في معنى المشاركة في الفيلم الجنوب أفريقي.

ما أتذكره في يوم غسيل الفخار ذلك، هو أنه مهما كانت مخاوفنا عندما تجاوزنا خط الرفض، فقد أفسح ذلك المجالَ سريعًا لكثير من المشاعر والنكات والمحادثات الجيدة. كان هذا صحيحًا بشكل خاص عندما أتى طاقم الفيلم وأدركنا أننا قمنا بالشيء الصحيح. لم يكن علينا قضاء يومنا في التساؤل كيف أن تصويرنا سيُساهم في دعم نظام شرير وعنيف وغير إنساني في جنوب أفريقيا، أو يتماشى مع أسطورة البراءة التي تسمح بحدوث شراكات غير ملائمة مثل هذه، والتي نشأت ليس فقط لإخضاع السود في جنوب أفريقيا، ولكن أيضًا لتجريد الفلسطينيين من ممتلكاتهم. وبينما كان الناس يمرون بنا في طريقهم إلى المراحيض المتنقلة في ذلك اليوم، نظر إلينا بعض منهم على الأقل، متسائلين عما كنا نضحك عليه عندما كان من المفترض أننا مصابين بمرض.

لا يؤدي التضامن دائمًا إلى صباح ممتع يتخلله محادثات على ضفاف البحيرة – فالتضامن قد يكون مزعجًا ومخيفًا وخطيرًا. مع ذلك، يؤدي تجاوز هذه الخطوط إلى نشوء صداقة حميمة عادةً، ووضوح لا يوفره البقاء على الجانب الآخر من هذه الخطوط. في الواقع، كثيرًا ما حُذِّرتُ منذ ذلك الحين من قِبَلِ أولئك الذين يجدون دائمًا سببًا للبقاء في ذلك الجانب الآخر، إلى أي مدى يمكنَ أن يكون المرء وحيدًا بين غير الملتزمين وغير المكترثين، والمترددين خاصةً. تلك النظرات الغريبة من زملائنا الطلاب المتجهين إلى المراحيض المتنقلة كانت، على الأقل في بعض الحالات باعتقادي، مدفوعة بالتوق إلى أن يكونوا ضمن مساحة الصداقة الحميمة تلك.

كان الموسم الثاني في كفرناحوم محوريًا بطرق غير متوقعة، لا أزال أتذكرها حتى الآن. كان هذان الصيفان اللذان تلا التخرج في الكلية بمثابة افتتاح وإغلاق لمساحة محدودة، والتي اتّضح بعد مغادرتي لها، أنني شرعت في اتجاه لم يبعدني عنها أبدًا. بعد عامين ونيف من مغادرتي لكفرناحوم، أدركت تمامًا أكثر مما أدركته في الرملة في عام 1986، الطرق العديدة التي ارتبطت بها تجارب الفلسطينيين بشدة مع تجربتي. اللامبالاة التي رأيتها بين الإسرائيليين تجاه الفلسطينيين، والتي كانت ازدراء بحق، كانت لها أوجه تشابه في حياتي وتاريخي كفردٍ من أمة الأوساج، كما تجلت في مكتب الشؤون الهندية والبنى غير الفعالة للحياة المعاصرة في الولايات المتحدة التي تجعل الأصلانية غير مرئية وغير أصلية وغير منطقية ومن الزمن الماضي. كان أحد أسباب رغبتي في كتابة هذا المقال هو تذكّر ضآلة كل ما كنت أعرفه أو كوّنته عام 1986. على الرغم من كل ما لم أعرفه بعد، فإنني كنتُ أعي ما يكفي حت أرى الحقيقة وأتصرف

وفقها. طوال مسيرتي المهنية اللاحقة كباحث وكاتب، حاولت الدفاع عن حقوق الفلسطينيين وآمالهم وحريتهم، مع مراعاة واقعهم والسعي لفهم المزيد من التاريخ الذي أوصلنا إلى هذه المرحلة.

كفرناحوم اليوم عبارة عن حديقة وطنية بها مبنى مُدهش يغطي ما يعتقد الفرنسيسكان أنه بيت بطرس، حيث يمكن رؤية الآثار القديمة للمنزل من خلال أرضية زجاجية. لا يزال دير الروم الأرثوذكس موجودًا، ولا تزال الأرض المحيطة به غير مُنقّبة إلى حد كبير. أحب أن أرى هذا الموقع مرة أخرى يومًا ما. إذا عدت إلى ذلك الجزء من العالم، فسأذهب بسعادة إلى نابلس، وفندق الأرض المقدسة، وأماكن أخرى في القدس والضفة الغربية. لن أذهب، على الأقل في الوقت الحالي، إلى كفرناحوم أو ميا شعاريم أو طبريا أو حيفا أو الرملة. هذا لأنني لن أعبر هذا الجانب من الخط الأخضر مرةً أخرى حتى تتحرر فلسطين. لهذا السبب، آمل أن أتمكن من القيام بالرحلة قريبًا.

ارمِ الطلاء!

كيف اخترقت إسرائيل حملة سيناء وفلسطين؟

ميكايلا سحّار

أثارت حركة حياة السود مُهمّة Black Lives Matter الكثير من الحوارات الوطنية حول رمزية النصب التذكارية في الأماكن العامّة، والتي تدورُ حول أسئلة: ما الّذي تعرضه الدولة القومية وتُخلِّده وتُحيي ذكراه؟ ما الّذي تعنيه دلالات الثقافة الوطنية فيما يخص قيم الدولة وتصوراتها عن نفسها؟ كيف تبني الدول سردياتها وكيف تُسقِط تلك الهوية على مواطنيها وعلى غيرهم من الناس؟

في حين تُفهم خصوصية السياق الأمريكي من حيث إنّ قتل جورج فلويد George Floyd كان مقبولًا من قِبَل الدولة، فإنّ هذا الجانب من الحركة لم يعكس تعبيرًا عن التضامن العابر للحدود فحسب، بل وإعادة تقييم الخصوصيات الوطنية. تتصدّر حركة حياة السود مهمة السرديات الوطنية في سياق دولها، وتقدّم دعوةً للقيام بقراءة نقدية جديدة لكل من التعبيرات العابرة والراسخة في الثقافات الوطنية الشعبية.

شهدنا تشويهًا وهدمًا لنصب تذكارية، مما يُبشِّر بتلك القراءة النقدية. في مدينة بريستول، رُمي تمثال تاجر عبيد في البحر. أمّا في الولايات المتحدة، أُزيلت تماثيل أبطال الجيش الكونفدرالي وتجار العبيد وتماثيل الرمز الأصلي للاستعمار الأمريكي كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus. ولم يكن الحال مُشابهًا في سيدني، حيث نشرت الشرطة قواتها لحراسة تمثال الكابتن جيمس كوك James Cook[1] في هايد بارك، وهو ما يُظهِر مقدار أهمية التماثيل، فوجودها بوصفها تماثيل عامة، يؤكد على فرض سردية واحدة للتاريخ. ووجود هذه التماثيل في المجال العام، يعكسُ سردية الدولة ووجهة النظر الواحدة الّتي تتبناها.

1 كان بحارًا ومستكشفًا إنجليزيًّا، يُعد أحد أهم المستكشفين الأوروبيين في عصر التوسع الاستعماري، كما يُعد شخصية مثيرة للجدل في أستراليا، خاصةً بين أوساط السكان الأصليين الّذين يتهمون البحار الإنجليزي بارتكاب جرائم ترويع ضدهم عند وصول المستوطنين الأوروبيين لأستراليا، منذ قرنين ونصف من الزمن.

نصب تذكاري في ساحة بلدية كوبرغ. المصدر: المؤلفة، 2020

تعي الأمم الأولى First Nations[2] العنف الرمزي الّذي تُمارسه النصب التذكارية الاستعمارية والدور المُسيء الّذي تلعبه في تخليد الذكرى في المخيال العام. في أستراليا، تعمل النُصب التذكارية وأسماء الأماكن والمراسم الاجتماعية على تخليد سارقي الأراضي الكبار ومُنفّذي الإبادات الجماعية ضد الأمم الأبورجينية[3]. إنّ تخليد أستراليا لثقافتها الاستعمارية صاخبٌ بقدر صمتها حيال المقاومة النشطة للأبورجيين. لم تكن حركة حياة السود مُهمّة هي الدافع الأول لخلق الوعي عند المُستعمَرين، فصورة النصب التذكاري لجيمس كوك على شاطئ سانت كيلدا وهو مُغطى بالطلاء الوردي ومنقوش عليه عبارة «لا احتفاء بالإبادة»، أعدّها أداتي التعليمية المُفضّلة، بِما هي تفنيد مُعبِّر يُقدِّم للدارسين قراءة بديلة وواضحة لليوم الوطني الأسترالي وللثقافة الوطنية. لكن السياسيين ينعتون مثل هذه الأفعال بالوضيعة أو التخريبية للممتلكات العامة، في حين يجب الاعتراف بأنّها جوهرية لتقرير وإعادة تأطير الثقافة العامة. بعد حراك حياة السود مُهمّة، سيكون من الوهم اعتبار مثل هذه التماثيل والنصب التذكارية غير مُسيئة، أو أنها لا تُقر بعنف الدولة، بوصفها تُمَأسِس السرديات الجماعية المُشكِّلة للهُوية الوطنيّة.

2 الأمم الأولى هو مصطلح عرقي يشير إلى شعوب كندا الأصلية الّذين ليسوا من الإنويت ولا من عرق الميتي.

3 سكان أستراليا الأصليون، وهم الشعوب التي انحدرت من المجموعات التي عاشت في أستراليا وعلى الجزر المحيطة بها قبل حقبة الاستعمار البريطاني للبلاد. يشمل المصطلح الشعوب الأسترالية الأصلية وسكان جزر مضيق توريس. يُفضل كثير من الناس استعمال مصطلح الشعب الأصلي والجزيري، أو الأمم الأسترالية الأولى، أو الشعوب الأسترالية الأولى، أو الأستراليون الأوائل.

علينا تأمُّل ما أضافته حركة حياة السود مهمة إلى النقاشات حول الثقافة العامة، خصوصًا عند النظر إلى المساعي الإسرائيلية خلال العقد والنصف الماضيين إلى اختراق شرعية حملة سيناء وفلسطين، وبفعلنا هذا، نكون قادرين على محاكمة ادّعاء إسرائيل بأنها الشعب الأصلي.

كانت حملة سيناء وفلسطين[4] إحدى جبهات المعارك الحاسمة في الحرب العالمية الأولى الّتي شارك فيها جنود أستراليين، والّتي أُهمِلَ ذكرها إلى حدٍّ كبير في القرن العشرين في الاحتفالات بيوم أنزاك ANZAC[5]. طُرِحَت عدّة تفسيرات حول سبب عدم الاعتداد بالحملة كواحدة من الأحداث المفصليةَ في التاريخ العسكري الأسترالي في الثقافة العامة. كانت مذبحة صرفند[6] والّتي أَعدَمت فيها قوّة أنزاك قرية كاملة من الرجال الفلسطينيين، إحدى أسباب طمس هذا الجزء من التاريخ. لكن الإنكار الحاصل أكثر منهجية، إذ استخدمته المناهج الدراسية كأداة لعقود طويلة، بحيث يُكلّف طلاب المدارس المتوسطة بدراسة اتحاد المستعمرات الأسترالية والأحداث الصعبة الأولى الّتي مرّت بها الأمة الأسترالية. يعكسُ فيلم بيتر وير Peter Weir المثير Gallipoli[7]، صورةً للعديد من عناصر الشخصية الوطنية والقيم الأسترالية، فقد شاهدنا مأساة معركة ذا نيك the Nek[8]، متسائلين كيف استمرت الموجات المتعاقبة من الشباب الأسترالي في التقدم وتجاوز الخنادق تجاه حتفهم. جاءت الإجابة لتُنصِف رواية واحدة من القيم الأسترالية المرتبطة بحروب التاريخ في سنوات حكم رئيس الوزراء جون هوارد John Howard، حيث أكّد الناجون من هذه الكارثة العسكرية أنّهم لم يريدوا تخييب آمال زملائهم.

قدمت حملة سيناء وفلسطين في المقابل إرثًا أكثر تناقضًا، فعلى الرغم من نجاحها المؤكّد، إلّا أنّها سبّبت إرباكًا حول اسم فلسطين بعد عام 1948. كانت فلسطين

4 هي حملة عسكرية وقعت في مسرح أحداث الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الأولى بين بريطانيا والدولة العثمانية خلال الفترة ما بين 26 كانون الثاني/ يناير 1915 و31 تشرين الأول/ أكتوبر 1918، حينما عرض العثمانيون الهدنة. كان هدف الحملة بالنسبة للعثمانيين هو قطع طريق إمدادات الحلفاء المار عبر قناة السويس في مصر. وشرعوا من أجل ذلك بغزو سيناء التابعة للدولة المصرية الّتي كانت آنذاك تحت الحماية البريطانية. انتهت الحملة بانتصار الحلفاء وسقوط بلاد الشام بيدهم، وإنهاء الحكم العثماني الّذي دام فيها لأكثر من 400 عام.

5 يوم أنزاك يصادف الذكرى السنوية للحملة الأولى التي أدت إلى وقوع خسائر كبيرة للقوات الأسترالية والنيوزيلندية خلال الحرب العالمية الأولى. ترمز كلمة أنزاك إلى قوّة أسترالية-نيوزيلندية، تشكّلت خلال الحرب العالمية الأولى.

6 في وقت مبكر من ليلة العاشر من كانون الأول/ ديسمبر عام 1918؛ أي بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، أحاط حوالي 200 جندي من الأنزاك بالقرية الفلسطينية صرفند. وبعد طرد النساء والأطفال، نزل الجنود بهدف قتل كل شاب يفوق عمره السادسة عشرة. تشير التقديرات إلى أنهم قتلوا حوالي 40-120 شابًا، قبل أن يُشعلوا الأكواخ ويقتلوا الحيوانات. أضاءت النيران في الريف لأميال حولها، ثم انتقلوا إلى مخيم البدو المجاور، الّذي أحرقوه أيضًا على بكرة أبيه.

7 اسم الفيلم مأخوذ من اسم حملة غاليبولي أو حملة الدردنيل، وهي حملة عسكرية شنتها قوات بريطانية وفرنسية مشتركة خلال الحرب العالمية الأولى بهدف احتلال العاصمة العثمانية إسطنبول. دارت معارك الحملة في شبه الجزيرة غاليبولي على مضيق الدردنيل عام 1915، إلا أنّ جهود الحملة باءت بالفشل وقتل ما قُدّر عدده بحوالي 55 ألف جندي من قوات التحالف (بريطانيا وأستراليا ونيوزيلندا وفرنسا) وحوالي 90 ألف جندي عثماني، ووقع مئات الآلاف من الجرحى من الطرفين.

8 اشتباك ذا نطاق محدود وقع في 7 آب/ أغسطس 1915 أثناء حملة غاليبولي. «ذا نيك» هو امتداد ضيق للتلال في شبه جزيرة غاليبولي، والاسم مشتق من الكلمة الأفريقانية لـ «ممر جبلي»، لكن التضاريس نفسها كانت تشبه عنق زجاجة مثالي يسهل الدفاع عنه.

الحاضرة على النصب التذكارية للحرب في جميع أنحاء البلاد، تحظى باهتمام ضئيل، مثل حروب أستراليا الحدودية. كانت فسيفساء شلّال[9] – الّتي استولت عليها قوات أسترالية كانت تتخندق بالقرب من غزة وعُدَّتْ غنيمةِ حرب – القطعة المركزية على النصب التذكاري للحرب الأسترالية في كانبيرا ذات يوم. أما اليوم فقد حُجبت تمامًا عن الأنظار. فكيف استُأصِلَت فلسطين من حملة سيناء وفلسطين؟

ومن المفارقات أنّ استعادات حملة سيناء وفلسطين باتت مرتبطة مؤخّرًا باتجاه جديد في الثقافة القومية الإسرائيلية. وقد يشير هذا إلى تحولين مختلفين في القرن الحادي والعشرين، ويدلُّ على آليات بناء الأمة في الدول الاستعمارية الاستيطانية، حيث لا يزال العنف المؤسِّس لها غير معترف به وغير مطروح للنقاش. وفي حين أنّ صناعة السردية الإسرائيلية في القرن الحادي والعشرين، قد أقامت بالفعل روابطًا بين لواء الخيالة الأسترالي في معركة بئر السبع وولادة دولة إسرائيل، حيث ركّزت مؤخرًا على دور الجنود الأبورجيين في حملة سيناء وفلسطين.

يُظهر هذا استراتيجية إسرائيلية جديدة لإبعاد الفلسطينيين بحسبِ نموذج الاستعمار الاستيطاني، وادّعاء وجود هوية أصلية للمواطنين الإسرائيليين اليهود. وبتمجيدها دور جنود السكّان الأصليين وتسليطها الضوء على معاناتهم على الشواطئ الأسترالية، سعت إسرائيل إلى تحسين علاقتها بمقاومة الأبورجيين، بوصفها مُناصرًا وحليفًا لكفاح السكان الأصليين المعاصر. ومع أنّ كلا نمطيّ الهوية يُعد زيفًا تاريخيًا، إلّا أنّ النمط الثاني يُبشّر بعصر جديد ومُقلق في صياغة الهوية الإسرائيلية.

في عام 2017 ولأول مرة، قاد جنود من الأبورجيين مسيرةً يوم أنزاك في الذكرى المئوية لمعركة بئر السبع وغيرها من معارك حملة سيناء وفلسطين[10]. في ذلك العام، نظّم الصندوق القومي اليهودي برنامجًا تذكاريًا لمدة 10 أيام في إسرائيل، اشتمل على 12 شخص من نسل جنود من الأبورجيين ضمن مشروع أمانة رونا ترانبي Rona Tranby Trust لإعادة إحياء قصصهم[11]. ذكرت صحيفة *The Times of Israel* بأنّ هناك سعي إلى «تسليط الضوء على أشكال التمييز داخل الجيش»[12]. أنتج مشروع أمانة رونا ترانبي فيلمًا وثائقيًا تحت عنوان **يجب قول الحقيقة: كي لا ننسى**[13] يبحث أسئلة

9 خلال معركة غزة الثانية في 17 نيسان/ أبريل 1917، اكتشفت مجموعة من المرشدين الأستراليين بقيادة العريف (الرقيب لاحقًا) إرنست لوفيل شور، فسيفساء اكتشفتها القوات التركية جزئيًا، إذ بنوا خندقًا على تل في وادي غزّة قرب بلدة الشلال. كجزء من عملية إنشاء محطة جهاز هليوكراف في الموقع، حيث كشفت القوات الأسترالية النقاب عن آثار استثنائية من الفن البيزنطي، والذي يُعرَف الآن باسم فسيفساء شلال. أُنشئت الفسيفساء عام 561-562م في عهد الإمبراطور الروماني الشرقي جستنيان.

10 Bridget Brennan, "Anzac Day: Indigenous Soldiers Thought 'When We Got back We'd be Treated Differently'," *abc News,* 25/4/2017, accessed on 19/2/2021, at: https://ab.co/3dgLtgR

11 Melanie Lidman, "In Israel, Descendants of Aboriginal ANZAC Soldiers Retrace Forgotten Stories," *The Times of Israel,* 24/10/2017, accessed on 19/2/2021, at: https://bit.ly/2Osg8NC

12 Ibid.

13 Erica Glynn (director), *Truth Be Told: Lest We Forget*, written by Erica Glynn & Tanith Glynn-Maloney (Alice Springs, NT: Since1788 Productions, 2018), 58 mins, aired on 11/4/2019, at: SBS.

مثل سبب انضمام رجال السكان الأصليين إلى الجيش، وذلك في سياق معاملة الدولة الأسترالية للأبورجيين في أوائل القرن العشرين. ومع ذلك، ربما يكون أهم إنجازات الفيلم الوثائقي هو الاشتباك مع سردية الحروب الحدودية، والربط بين تلك الحروب ومعركة بئر السبع.

ثمّة علاقة ضئيلة – ظاهريًا – بين مقاومة الأبورجيين والحرب الاستعمارية المُنفّذة على أراضٍ أجنبية. ومع ذلك فإنّ الفيلم الوثائقي، رغم عدم إشاراته على الإطلاق إلى الأشخاص الّذين سكنوا تلك الأراضي في عام 1917، يسعى إلى تعزيز الصلة بالفكرة القائلة بأنّ بئر السبع وحملة سيناء وفلسطين الّتي قامت بها قوة أنزاك، كانت بمثابة معارك تحرير لدولتهم المستقبلية. ولتحقيق هذه الغاية، تتصدر إسرائيل الآن دور خدمة الجنود الأبورجيين لتأطير هذه المعارك على أنّها شكل من أشكال التضامن التاريخي الأصيل بين اليهود الإسرائيليين والسكان الأصليين في أستراليا.

احتُفِيَ بالروابط بين اليهودية-الإسرائيلية ونضال الأبورجيين في أيلول/ سبتمبر 2019، عندما أُزيح الستار عن تمثال بعنوان «الأبورجيني وحصانه»[14]. وُضع التمثال في منطقة تعرف باسم زيماخ Tzemach، والّتي كانت تُسمى في عام 1917 بـ«سمخ»[15]، وهي «قرية عربية صغيرة ومستوطنة للسكك الحديدية»، كانت ذات أهمية استراتيجية[16]. يشير مقال في صحيفة *Haaretz* إلى أنّ وضع التمثال يُمثل إحدى مراحل «التصحيح التاريخي الّذي يمر به المجتمع الأسترالي في علاقاته مع الأبورجيين»[17]. ويشير المقال أيضًا إلى أنّه «في ضوء العنصرية المنهجية الّتي لا تزال تعصف بمجتمع الأبورجيين» في أستراليا، فقد قُلِّل من شأن مساهمات وقصص هؤلاء الأبورجيين. ومع ذلك، لا يرى كاتب المقال أيّ مفارقة في وصف مؤرِّخ يعمل في المشروع بأنّه «متخصص في تاريخ فلسطين قبل قيام الدولة»[18]. لذلك يجب فهم التمثال في سياقه الساخر، والّذي يهدفُ ضمنيًّا إلى رفض الادعاءات الفلسطينية بأنهم الشعب الأصلي، وذلك أثناء مُحاولته مواءمة الهوية الإسرائيلية اليهودية مع نضالات أُخرى للسكان الأصليين.

أُعيد تسمية قرية سمخ الفلسطينية المُهجرة، كما هي عادة إسرائيل، لتطبيع العلاقات اليهودية-الإسرائيلية وطمس أشكال حياة الفلسطينيين في دولة إسرائيل غير المُستقرّة، إمّا عبر المذابح أو التهجير أو الإنكار[19]. يعكسُ التمثال إحدى أحدث استراتيجيات المشروع الإسرائيلي للتخلص من الأشباح الفلسطينية الّتي تلاحق شرعية

14 Ofer Aderet, "Israel Honours WWI Australian Aborigine Fighters at Centre Near Sea of Galilee," *Haaretz*, 26/9/2019, accessed on 19/2/2021, at: https://bit.ly/3rS2z8A

15 قرية فلسطينية تقع عند أقصى الشاطئ الجنوبي لبحيرة طبريا، كانت أكبر قرى القضاء من حيث المساحة وعدد السكان. احتُلّت عام 1948، ورحل جميع أهلها البالغ عددهم 8500 نسمة. يُقال: زرعٌ حسن السمخة، أي حسن النوع والطلعة.

16 Ian Jones, *The Australian Light Horse* (Sydney: Time Life Books, 1987), p. 154.

17 Aderet.

18 Ibid.

19 Ilan Pappe, *The Ethnic Cleansing of Palestine* (Oxford: Oneworld Publications, 2006), pp. 225-226.

دولة إسرائيل، أي ادّعاء تقوية أواصر العلاقة بين اليهود الإسرائيليين والأبورجيين الأستراليين، وبشكل غير واعٍ إظهار التعاطف مع نضال السكان الأصليين الأبورجيين ضدّ مظالم دولة الاستعمار الاستيطاني الأسترالية.

حريٌّ بنا إدراك أنّ هذا حل منهجي لنموذج الاستعمار الاستيطاني في إسرائيل، وهو توصيف تحاول إسرائيل تقويضه من خلال إعادة موضعة المجتمع اليهودي الإسرائيلي على أنّه شعب أصلي؛ إعادة موضعة تجري من خلال القوة المُمأسسة لدولة الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلية على نحو مُنافق ومُتناقض بشكلٍ جلي.

وقد أُطلِقَ اسمٌ على هذا التحول في ثقافة الدولة الإسرائيلية، حيث نحتت ج. كيهولاني كاوانوي J. Kehaulani Kauanui مصطلح «التحمير Red Washing»[20] في سياق الأمريكيين الأصليين، أما في سياق السكّان الأصليين، يكون مصطلح «التسويد Black Washing» ملائمًا أكثر. الآن، أرمي باستخدام قلمي الفلسطيني طلاءً على اختطاف إسرائيل لحملة فلسطين، لأن الطلاء أفضل من المَحْي، فهو يلفت الانتباه إلى تلك الرموز الموجودة بكثافة في مجالاتنا العامة، وتُعارض المعاني المفروضة عليها. يجب أن يكون مشروعنا فضحًا وليس محوًا، كي لا ننسى!

20 على نمط الـ White Washing والتي تستخدم استعاريًا للتغطية على الجرائم والرذائل والفضائح أو التستر عليها أو التبرئة منها عبر التحقيقات السطحية أو العرض المتحيز للبيانات، ويظهر هذا في طريقة عرض الرجل الأبيض لتاريخه الاستعماري مثلًا، حيث يبدو بطلًا أو منقذًا، وتشير الكاتبة هنا إلى استخدام موازٍ للمصطلح، لكن في سياق سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحُمر) أو سكان أستراليا الأصليين.

القسم الثاني

شهادات وتأملات حول التضامن وإنهاء الاستعمار

لجوء، زيت على قماش، 60x50 سم (2020).

الحقيقة والحرية والتضامن

تأملات في التضامن بين الشعوب الأصلية والمستوطنين اللاجئين الملونين

سيلفيا مكادم وسوجيث زافيير

سيلفيا مكادم

اسمي سيلفيا مكادم (سيسيواهام)، وأنا امرأة من قبائل الكري (نهياو إسكيوي)[1] من أراضي المعاهدة السادسة Treaty 6، فما يشار إليها الآن باسم مقاطعة ساسكاتشوان. نسمي قارتنا الكبيرة جزيرة السلحفاة[2]. اسمنا قبائل النهياو، أو قبائل الكري بلُغة المستعمر. قبل زمن طويل، كانت أعدادنا بالملايين، وكنا ننتشرُ في البراري البعيدة في الولايات المتحدة. إلّا أنّ الإبادة المتعمَّدة والمقصودة من خلال القانون الهندي Indian Act [3]، والمدارس الداخلية الهندية، ونظام المرور والتصاريح، والأمراض، والعديد من أساليب الإبادة الجماعية الأخرى، كل ذلك أدى إلى هلاك الكثيرين، وبالتالي قُلّصت أعدادنا، وتُرك ما تبقى من شعبي مَحض ظلٍ لوجودهِ الحقيقي.

نشأتُ في إحدى محميات القانون الهندي، التي كانت تُسمى بحيرة وايت فِش Whitefish Lake #118، والّتي يُشار إليها حاليًا باسم نهر الأمم الأولى الكبير Big River First Nation. أنا مسجلة كهندية بموجب القانون الهندي، وأحمل بطاقة برقم تعريفي. يتوجّب عليّ أن أتبع اللّوائح بموجب القانون الهندي المفروض على كل واحدٍ من جوانب حياتي. ينتهك القانون الهندي المعاهدة السادسة بالكامل، وهي معاهدة سلام وصداقة، وليست معاهدة تنازل واستسلام كما نصّ بشأنها التاج البريطاني.

1 مجموعة من شعوب أمريكا الشمالية الأصليين.

2 هو اسم لأمريكا الشمالية، يستخدمه بعض سكان الولايات المتحدة الأصليين والأمم الأولى وبعض نشطاء حقوق السكان الأصليين. يعود الاسم لقصة الخلق لدى السكان الأصليين في أمريكا الشمالية.

3 قانون برلماني كندي يهتم بالهنود المسجلين وفرقهم ونظام الاحتياطيات الهندية. أُقرَّ لأول مرة في عام 1876 وما زال ساري المفعول حتى الآن مع بعض التعديلات. تحدد هذه الوثيقة الأساسية كيفية تفاعل حكومة كندا مع 614 جماعة من شعوب كندا الأولى وأعضائها. طوال تاريخ الوثيقة الطويل، كان القانون موضوعًا مستمرًا للجدل، وفُسِّر بطرق مختلفة من الكنديين الأصليين والكنديين من غير السكان الأصليين. عُدّل القانون عدة مرات، منها أكثر من عشرين تعديل رئيسي في عام 2002.

خلقت الإمبراطورية البريطانية ونظام التاج الإمبريالي الخاص بها «ممتلكات» و«مقاطعات» على جزيرة السلحفاة العظيمة، مُقسِمةً أراضي شعبي مثل قطع اللّحم، وقاذفة بها بعيدًا لتدميرها.

وكفعلِ مقاومة وبقاء، أخفى الآباء بعض أطفالهم في أراضي الصيد الخاصة بنا، وتعاضدوا سرًّا لينقلوا معارفنا ولغاتنا وثقافتنا، فسكتت أراضينا من أصوات الأطفال وضحكاتهم. وبذلك، تُعرَف أراضي عائلتي وشعبي من عظام أقاربي وأجدادي فيها، والّتي بات المستعمرون يبنون مخيماتهم فوقها. أنا وليدة مقاومة عائلتي لإبادة جماعية طويلة في جزيرة السلحفاة، وأحمل ذكرى حريتنا وتحررنا. تواصل كندا احتلال أراضينا ونهب وسلب مياهنا وحيواناتنا.

سوجيث زافيير

اسمي سوجيث زافيير، وقد ولدت في قرية صغيرة تبعد 45 دقيقة عن مدينة جافنا في المقاطعة الشمالية في سريلانكا. فررتُ مع أمي من منزلنا وأنا في التاسعة من عمري، بسبب الحرب الّتي طال أمدها بين أبناء شعبي التاميل[4]، الذي دعم غالبيتهم الحكومة السنهالية[5].

واجه التامِليّون في سريلانكا المضايقات ونظام التمييز والموت، بمجرد أن منحَ المستعمرون الغربيون الاستقلال لأمتنا الصغيرة في الجزيرة. مع وصول المستعمرين (البرتغاليين أولًا، ثم الهولنديين، ثم البريطانيين)، تغيرت حياة شعبي وتاريخهم إلى الأبد. عندما وصلت الموجة الأولى من المستعمرين إلى شواطئنا، وجدوا فيها عددًا من الأمم المتمايزة بثقافاتها وتقاليدها ولغاتها. ومع امتداد التاريخ الكولونيالي للجزيرة، وصولًا إلى النضال نحو الاستقلال أخيرًا، شهدنا إنشاء دولة قومية موحدة في عام 1948، ضمّت مجتمعات متعددة تتنافس على السلطة، مما جعل التاميل مُستهدَفين فيها، بعدما كانوا في الكثير من الأحيان مهمشين. وسيؤدي هذا الشكل من التمييز لاحقًا، إلى إنشاء حركة تقرير المصير في شمال وشرق البلاد، والّتي لجأت في النهاية إلى العنف من أجل تحقيق الحرية.

تجلى هذا الصراع على السلطة في القصف المدفعي اليومي الّذي شنّه الجيش السريلانكي في الشمال والشرق. من الصعب حقًا أن ننسى المخبأ الأول الّذي بناه والدي أمام منزلنا تحت أشجار المانجا، فقد زرع جدي هذه الأشجار بعناية منذ سنوات. ولا يمكنني أن أنسى الرصاص المُتدفِّق عشوائيًا من طائرات الهليكوبتر السوداء والرمادية وأحيانًا الخضراء، والصوت المُجلجل والمُرتفِع للقذائف المُنهمِرة في مكانٍ ما وسط قريتنا. هربتُ ووالدتي مع اشتداد القتال، إلى عاصمة البلاد كولومبو. ومع

4 التامِليّون أو الشعب التامِلي هم مجموعة عرقية من شبه القارة الهندية، ترجع أقدم سجلاتها التاريخية إلى أكثر من ألفي عام.

5 السنهاليون، مجموعة عرقية هندو-أوروبية تتواجد في سريلانكا، وهم أكبر مجموعة عرقية في سريلانكا، يتكلمون باللُّغة السنهالية، ويعتنق أغلبهم البوذية التيرافادية، مع وجود أقليات تعتنق المسيحية.

اشتداد قمع المعارضة السياسية، لم يعد بإمكان عائلتي البقاء في العاصمة، لذا تحتم علينا المغادرة، فذهبنا إلى ما بات يُعرف الآن بمونتريال كيبيك في عام 1988، أي قبل عشرين عامًا من الإبادة الجماعية في المقاطعة الشمالية لسريلانكا عام 2009. طلبنا اللُّجوء واستقرّينا بوصفنا لاجئين في كندا، أولًا في مونتريال، ثم لاحقًا في تورنتو. شققتُ طريقي في النهاية إلى الأراضي الموروثة لاتّحاد النيران الثلاثة[6]، حيث أعيش الآن وأُحِب وأعمل – بوصفي لاجئةً مستوطنةً غريبة وملونة – في تدريس القانون في كلية الحقوق بجامعة وندسور[7].

استمر الصراع العنيف بين نمور التاميل (الجماعة المسلحة الرئيسة الّتي سعت إلى الاستقلال عن الدولة الموحدة)[8] والدولة السريلانكية لمدة 27 عامًا، صاحبه سقوط عدد لا يحصى من القتلى من كلا الجانبين. انتهى الصراع في أيار/ مايو 2009 بهزيمة نمور التاميل أمام الدولة السريلانكية. تمكنت القوة العسكرية لدولة سريلانكا عند هذه النقطة، وبمساعدة الحكومات الأجنبية، من حصر المدنيين على قطعة أرض في المقاطعة الشمالية. وبحلول المراحل الأخيرة من الحرب، كان ما يُقارب ثلاثمئة ألف شخص من التاميل قد اكتظّوا على رمال شاطئٍ في موليفيكال هربًا من القتال. ومع اشتداد القتال، بدأت الدولة السريلانكية بإبادةٍ جماعيةٍ عن علمٍ وقصدٍ ضد التاميل، من خلال قصف المستشفيات المؤقتة والخيام وغيرها من المساكن الّتي أقامها اللاجئون دون التمييز بينهم.

وبينما تملّكهم الرعب، شاهد الكثير منا ممّن فروا من الصراع قبل الإبادة الجماعية، عملية ذبح شعبنا على يد الدولة السريلانكية العُنصرية، بسبب حماستها في التخلص من «الإرهابيين» المخيفين. شاهدتُ أبناء شعبي يموتون في حين أنني نجوتُ؛ أعيش وأنمو على أراضٍ مسروقة.

الحقيقة والحرية والتضامن في الأراضي المحتلة

يشير الباحث الفلسطيني الأمريكي ستيفن سلايطة إلى أنّ التضامن من أجل تحرير فلسطين في الدول الاستعمارية الاستيطانية بالولايات المتحدة وكندا، يتطلّب اتّخاذ إجراءات لإنهاء استعمار جزيرة السلحفاة[9]. وبأخذنا بما قاله سلايطة، فإننا نستشرفُ آفاق عملنا التضامني وظروف حريتنا في جزيرة السلحفاة، بناءً على تجاربنا الحية.

6 تحالف طويل الأمد بين قبائل أنيشينابه الأصلية: قبائل الأجيبوي (أو التشيبيوا) وقبائل الأوتاوا وقبائل البوتاواتوميفي في أمريكا الشمالية.

7 Sujith Xavier, "Loving, Working, and Living on Stolen Land: People of Colour, Settler Colonialism &White Supremacy," *Reconciliationsyllabus*, 8/12/2018, accessed at: https://bit.ly/3q095Un

8 الحركة السريلانكية الانفصالية، كانت تدعى في السابق نمور تحرير التاميل – إيلام، وتقاتل الحركة منذ العام 1983 ضد حكومة العاصمة كولومبو بهدف الاستقلال الذاتي في إيلام التاميلية، وهي المناطق الّتي تقطنها عرقية التاميل شمالي وشرقي الجزيرة الّتي تحكمها غالبية من عرقية السنهاليين.

9 Steven Salaita, "American Indian Studies and Palestine Solidarity: The Importance of Impetuous Definitions," *Decolonization: Indigeneity, Education & Society,* vol. 6, no. 1 (2017).

يقال لنا إن الحرية جزء من النسيج المؤسِّس لكندا. تهدف ديباجة دستور 1982 إلى جانب الحقوق المختلفة المكفولة في **الميثاق الكندي للحقوق والحريات** إلى حماية أولئك الموجودين داخل حدود كندا. تتراوح هذه الحريات المزعومة من الحماية الأساسية للحياة والحرية والأمن الشخصي إلى أشكالٍ أخرى من حقوق المشاركة الديمقراطية. هذه الحريات، الّتي هي بطبيعتها مدنية وسياسية إلى حدٍّ كبير، تُشكّل نسيج الديمقراطية الكندية الّتي تأسست على الإقرار بـ «سمو الرب وسيادة القانون».

لكن بالنسبة لنا، بوصفنا؛ امرأة من قبائل النهياو (كري) من المعاهدة السادسة، ومستوطنة لاجئة من التاميل من شمال سريلانكا، فهذه هي الأساطير التأسيسية لدولة كندا الاستعمارية الاستيطانية، ولا تكمن الحرية بالنسبة لنا في دولة قومية ويستفالية[10]. إن وعود الدولة بالحقوق المدنية والسياسية يُشتِّت الانتباه، فحريتنا مُترابطة من خلال مُضيِّنا قدمًا نحو تفكيك تفوّق البيض وإعادة تشكيل العملية السياسية المستمرة في تهميش السود والسكان الأصليين وغيرهم من المستوطنين الملونين.

عند التفكير في حريتنا، تصدمنا الإجراءات المختلفة الّتي اتُّخِذَت للدعوة إلى المصالحة تجاه الإبادة الجماعية المتواصلة في جزيرة السلحفاة[11]. تستند هذه الإجراءات إلى حدٍّ كبير إلى سيادة القانون، وتركز على كيفية تجاوز الإبادة الجماعية المتواصلة، والّتي تُعتبر مركزية للغاية في تجاربنا اليومية الحيّة. إنّ الدعوة إلى المصالحة وتجاوز الأضرار المتواصلة وفظائع الماضي الّتي مارستها دولة كندا الاستعمارية الاستيطانية، تتجاهل عنصرًا أساسيًا في أيّ مُحاولة تسعى إلى تحقيق العدالة، أو الحقيقة بالأحرى.

نُشدِّد هنا على أهمية الحقيقة نظرًا لتجربتنا الحيّة. يواجه الواحد منا المظالم اليومية الّتي تكوّن سردية الاستيطان والاحتلال، وتواصل مجتمعاتنا التعويل على حسن نية الدولة الاستيطانية من أجل بقائنا اليومي. وبناءً على ذلك، تعمل الدولة الاستيطانية جاهدةً على منع تحقق القومية لأيٍّ من مجتمعاتنا[12].

تستخدم الدولة الاستيطانية في الوقت نفسهِ العمالة من المستوطنين، بمن فيهم المستوطنين الملونين، لاحتلال الأراضي المسروقة واستخراج الموارد من الأرض. والأهم من ذلك توريط الدولة الاستيطانية للمستوطنين الملونين في ارتكاب إبادة جماعية عنيفة

10 مبدأ القانون الدولي بأنّ لكل دولة سيادة على أراضيها وشؤونها الداخلية، مع استبعاد جميع القوى الخارجية، والتدخلات في الشؤون الداخلية لدولة أخرى، وأنّ كل دولة (مهما كانت كبيرة أو صغيرة) متساوية في القانون الدولي.

11 يُنظر على سبيل المثال:

"Reclaiming Power and Place: The Final Report of the National Inquiry into Missing and Murdered Indigenous Women and Girls," MMIWG (June 2019); Final Report of the Truth and Reconciliation Commission of Canada: Summary: Honouring the Truth, Reconciling for the Future (Winnipeg: Truth and Reconciliation Commission of Canada, 2015); Office of the Missing Persons ACT in Sri Lanka, accessed on 19/2/2021, at: https://bit.ly/3ue7OBy

12 Sylvia McAdam (Saysewahum), *Nationhood Interrupted: Revitalizing nêhiyaw Legal Systems* (Saskatoon: Purich, 2015).

ضد شعوب الأمم الأولى، مثل الميتيس[13] والإنويت[14]، فيما يُعرف الآن باسم كندا، وذلك من خلال السيطرة على أراضيهم واختطاف أطفالهم. إنّ تواطؤ المستوطنين في هذه العملية هو حقيقة مهمة يجب أخذها بعين الاعتبار. لا أُنكِر طبعًا أنّ «التواطؤ» مصطلح يحملُ أكثر من وجه، وأنّ العديد ممّن يحملون صفة المستوطنين الملونين لا يحملون المسؤوليات نفسها[15]. نُدرك بشكلٍ خاص وأليم التجارب المعيشية المختلفة لسليلي الشعوب المستعبدة، الّذين جُلبوا إلى جزيرة السلحفاة بالقوة على يد المستوطنين الأوروبيين. تُعد الحقيقة جانبًا أساسيًا للمضيّ قدمًا، حيث نسعى إلى حياةٍ أفضل يُمكن لشعبينا العيش فيها بحرياتهما.

الحقيقة: بناء التضامن والعلاقات

بوصفنا ناجين والآن معلِّمين مُتخصصين (وإن كان ذلك بطُرُقٍ مختلفة)، فنحن في رحلة التدريس هذه معًا في واحدة من أكثر المؤسسات الاستعمارية شُهرة: مؤسسة تعليمية عُليا تُدرب المحامين المستقبليين. بالنظر إلى تجاربنا الّتي نعيشها، فإنّنا ندرك بشكلٍ مُوجع بأنّ المحامين قد تسببوا بأضرار شتّى لنا من خلال مختلف القوانين والمؤسسات القانونية الّتي ساعدوا في إنشائها. تسمح هذه القوانين والمؤسسات باستمرار تفوّق البيض. لقد عمل المحامون الّذين تلقوا تعليمهم في مؤسستنا (من بين محامين آخرين) في الحكومة وفي تمثيل المجتمع المدني وغيرها، وسيستخدمون بالطبع معرفتهم بالدستور الكندي، الذي صاغه أيضًا محامون دربتهم كليات القانون. وكما أشرنا سابقًا، يستند الدستور إلى الأسطورة التأسيسية: سيادة القانون و«الإله» المسيحيّ. ورغم سهولة أشكلة الإشارة إلى الرب، فإنّ أشكلة الإشارة إلى سيادة القانون ليست بالسهولة ذاتها.

تعمل سيادة القانون كوسيلةٍ لتنظيم الحياة اليومية لكل من يعيشون دخل الحدود الكندية. تشمل سيادة القانون؛ **القانون الهنديّ** و**قانون نقل الموارد الطبيعية.** وعليهِ، فإنّ سيادة القانون في هذا السياق تضع مفاهيم المستوطنين الأوروبيين عن الشرعية بوصفها السمة التنظيمية الشرعية والأساسية للنظام الوطني. تُسهل دولة الاستعمار الاستيطاني عبر هذا الفعل احتكارَ القانون الغربي، وتضمن سيادة القانون. ومع ذلك فإنّ الحُكم **بالقانون** والمكتوب بقوة في دستور دولة المستوطنين والمطبوع في أذهاننا، يصون مبدأ تفوق البيض على هذه الأراضي المستوطَنة والمحتَلة، والّتي نُطلق

13 مجموعة أصلية متعددة الأجداد في كندا وأجزاء من الولايات المتحدة. في حين لا ينتمي جميع الميتيس إلى «أمة الميتيس» الّذين نظموا مجتمعات بين منطقة البحيرات الكبرى وجبال روكي، فإنّ أصول هذا المصطلح والسجل التاريخي يُحيل بوضوح إلى إشارته إلى جميع السكان الأصليين المختلطين في التراث الأمريكي الشمالي والأوروبي.

14 إنويت أو الإسكيمو هم شعب يسكن في شمال الكرة الأرضية. وإنويت تعني «الناس» بينما إسكيمو تعني «الناس الّذين يأكلون طعامهم نيئًا». وهذه الكلمة أطلقها عليهم الهنود الحمر ازدراءً لشعب الإنويت الّذي يعيش حاليًّا عند السواحل الشمالية لقارة أمريكا الشمالية، ويعيش على صيد الحيوانات والأسماك بشمال شرق سيبيريا.

15 للتوسع في القراءة، يُنظر:

Tapji Garba & Sara-Maria Sorentino, "Slavery is a Metaphor: A Critical Commentary on Eve Tuck and K.Wayne Yang's 'Decolonization is Not a Metaphor'," *Antipode*, vol. 52, no. 3 (2020), pp. 765-782.

إزالة الأشجار. المصدر: سيليا مكادم (سيسيواهام)، إقليم المعاهدة السادسة (2016).

عليها الآن اسم الوطن. كيف نفكك تفوّق البيض الّذي تحفظه سيادة القانون؟ كيف نفعل هذا بتضامننا مع بعضنا بعضًا؟

هدفنا الرئيس من هذه المداخلة مبنيٌ على كلمات سلايطة الّتي استشهدنا بها آنفًا في بداية الورقة. يتحتّم على العمل المناهض للاستعمار والمناهض للإمبريالية الجاريين على أراضي السكان الأصليين المسروقة أن يعترف، وقبل كل شيء، بسرقة الأرض وسلبها من الشعوب الأصلية.. هذه هي الحقيقة.

استولي على الأرض، وقُتل السكان الأصليين. يستمر تدمير الأراضي المُستولى عليها عبر إزالة الأشجار Clearcutting[16] واستخراج الموارد وعددٍ من الأنشطة الاستخراجية الأخرى. تؤثر هذه الإجراءات على هذا الجيل والأجيال القادمة. من المفترض أن تكون هذه الأراضي محميةً بموجبِ المعاهدات، وتحديدًا المعاهدة السادسة[17]. تتعرّض أراضي السكان الأصليين الواقعة فيما يُسمّى الآن كندا، للنهب والسلب المُتواصلين، والّذين يؤديان إلى نتائج مدمرة. يأسفُ كبار السن على أنّ أراضي الغابات الشمالية الّتي كانت خصبة يومًا ما، قد صارت الآن خاليةً من الأشجار والأعشاب والمياه.

إزالة الأشجار. المصدر: سيليا مكادم (سيسيواهام)، إقليم المعاهدة السادسة (2016).

16 يُشير مصطلح Clearcutting إلى ممارسة حرجية تجري فيها قطع كل الأشجار في منطقة الاحتطاب، وهي ممارسة ثار حولها جدل بسببِ الأضرار البيئية المحتملة.

17 Steven Newcomb, "Reconciliation and Sylvia McAdam's Efforts to Protect the Land," *Indian Country Today*, 27/10/2016, accessed on 19/2/2021, at: https://bit.ly/3soNdPa

المصدر: سوجيث زافيير (موليفيكال)، المقاطعة الشمالية سريلانكا (2018).

تعرّضت الشعوب الأصلية في كثيرٍ من الحالات للتعذيب قبل قتلهم. توفيّ العديد من الأطفال في المدارس الداخلية الهندية والمدارس الصناعية الهندية، بينما توفيّ آخرون نتيجة المرض والمواجهات اليومية مع الدولة القومية المتعصبة للبيض. من خلال الاعتراف بهذه الحقيقة والتفكير فيها، نعتقد أنّ بإمكاننا المضيّ قُدُمًا من خلال اتخاذ بعض الإجراءات أثناء بحثنا عن العدالة.

بينما نشهد الآن الدعوات الأخيرة للمصالحة، نحثُّ على إيجاد نقطة انطلاق مختلفة. إنّها نقطة انطلاق تعترف بتواطؤ المستوطنين في الإبادة الجماعية المتواصلة للسكان الأصليين. لا يزال المستوطنون يستفيدون من الدولة القومية المتعصبة للبيض، وعلى وجه الخصوص، المستوطنون الملونون مثلنا، فنحن متورطون بشدة في هذه العملية. هذه حقيقة يصعب قبولها، خاصةً عندما يضطر أحدنا إلى الفرار وترك كل شيء وراءه، والانفصال عن أرضه وأسلافه. وعلى غرار العنف المضمن في الصورة أعلاه لحقيبة الظهر المحترقة والمتروكة على شاطئ في موليفيكال، يحملُ أحدنا عنف الفرار، وعنف الاضطرار إلى طلب اللُّجوء من خلال تقديم دليل على الاضطهاد إلى مسؤول أبيض في دولة الاستعمار الاستيطاني القومية، ومجبرًا على تعلم كيف يعيش مثل شخصٍ أبيض للبقاء على قيد الحياة في فضاءٍ يتفوّق فيه البيض.

لا يزال أحدنا، وعلى الرغم من طبقات العنف هذه، يحب الأرض المسروقة ويعيش ويعمل فيها، بينما يستمرُ الآخر في المعاناة من عنف الاستيطان والاحتلال المستمر. يُعد الاعتراف باستمرار وجود المستوطنين على أراضي السكان الأصليين جزءًا لا يتجزأ من الإبادة الجماعية المتواصلة. باعتقادنا، إنّها نقطة البداية لتضامننا. إنّها الحقيقة الّتي تجذبنا نحو التضامن عبر آلامنا المشتركة.

إن كُنّا نطمح لبناء عالم أفضل لنا، ومن خلال تجاربنا الحية، فيجب علينا التوفيق بين هذه الحقيقة الأساسية والجوهرية وقبولها. إنّ المستوطنين متواطئين، ويجب الاعتراف بذلك إذا أردنا المضيّ قُدُمًا في البحث عن العدالة، بحثًا عن يومٍ أفضل.

أحقيّة الشعوب الأبورجينية وإنهاء الاستعمار

إيرين واتسون

أنتمي لشعوب التانكينكالد Tanganekald والميِّنتاك Meintangk والبونكانديج Bunganditj[1]، المُنتشرين في مدينة كورونك Coorong وجنوب شرق ولاية جنوب أستراليا. لم يكن الاعتراف بانتمائي دائمًا سهلًا، لأنّ العالم من حولي ومنذ طفولتي طبّع انتمائي من خلال سلسلة من التصنيفات، أي أنّ نظام التعليم في جنوب أستراليا أشار إلى والدتي على أنّها نصف نقية Half-caste[2] وفي المدرسة كان لقبي كاسي نصف النقية Half-caste Casey. كان هذا في ستينيات القرن العشرين.

عندما كنتُ طفلة صغيرة جدًا تنظرُ إلى لون يديها، سألت أمي: من نحن؟، فأجابتني: «أنتِ ما أنتِ عليهِ، وتنتمين إلى التانكالون Tangalun، أي إلى المكان في نهاية أراضي شعب التانكين Tangan وبداية حدود شعب الميِّنتاك Meintangk». ولدت جدة أمي قبل قدوم الدولة الاستعمارية واحتلالها لأراضينا، وهذه هي القصص الّتي حُفِظَتْ خلال حروب الحدود الاستعمارية العنيفة.

عندما كنتُ أنظر إلى الخريطة في طفولتي، لم أكن قادرة على إيجاد أيّ من الأسماء الّتي سمعتها من عائلتي، بل وجدتُ أسماءً من قبيل كينكستون Kingston والمسماة تيمُّنًا برئيس وزراء جنوب أستراليا، أو روب Robe تيمُّنًا بحاكم جنوب أستراليا، أو جبل كامبير Gambier تيمُّنًا بأميرال البحرية الملكية كامبير. هيمنت هذه الأسماء على الخريطة، وكان الأمر بالنسبة لي تعلُّم الخريطة الاستعمارية في عُمرٍ مُبكر. وعندما أنظرُ إلى خريطة أستراليا اليوم كما هي عند الأبورجين، أرى الأسماء القَديمة هامشيّة كذلك أو غير موجودة أصلًا. في عام 1840، نُسِبَ مقتل عدد من المستوطنين البيض

1 من السكّان الأبورجين الأصليين في أستراليا.

2 مصطلح يُستخدم لوصم فئة من الناس ذوي العرق المختلط. اشتُقَّ المصطلح من كلمة caste الآتية من اللّاتينية castus، والّتي تعني «نقي»، واشتُقَّت منها الكلمات البرتغالية والإسبانية casta، والّتي تعني العرق. استخدم علماء الإثنوغرافيا مصطلحات مثل النقي ونصف النقي وربع النقيّ والسلالة المختلطة على نطاق واسع في جميع أنحاء الإمبراطورية البريطانية لمحاولة تصنيف «السكان الأصليين»، واستُخدمت في أستراليا في أثناء السعي لتطبيق سياسة الاستيعاب. أمّا في أمريكا اللّاتينية، فقد كان المصطلح المكافئ لأنصاف الأنقياء هو Cholo وZambo.

إلى الميلمنجري Milmendjeri من شعب التانكينكالد، فردّ الجيش البريطاني وقتها بقتل أسلافنا انتقامًا، وبينما اندثرت هويّتنا آنذاك، بقي القليل من السجلات لما حدث لشعب الميلمنجري/ التانكينكالد.

حتّى سندات ملكية السكان الأصليين – التي عاملت كبار السن من أسلافنا على أنهم السلف الأول لمجموعة أصحاب السندات – أسمت أراضينا باسم آخر. لكنّ الحقيقة هي أنني أنتمي لشعوب التانكينكالد والميِّنتاك والبونكانديج. لقد انتميتُ لها قبلًا، وسأنتمي لها بعدًا، وهي الحقيقة الّتي ستدوم. لذلك حصل ويحصل عبر التاريخ الاستعماري لهذه القارة الّتي نسميها الآن أستراليا، تطبيع للهويات الاستعمارية. وبالنسبة لشعوب الأمم الأولى، يكون النضال من أجل التمسك بالهويات القديمة الّتي ننتمي إليها ونتذكرها.

ما الّذي يهم؟ إنّه أمر بالغ الأهمية، لأنّ التسميات الاستعمارية لأراضينا وهوياتنا كانت ولا تزال جزءًا من سيرورة تطبيع الاستعمار وفرض القوة الاستعمارية. في التاريخ الاستعماري الحديث، سُميّت إحدى الطرق السريعة الرئيسية الّتي تعبر أراضينا الأصلية باسم طريق الأمراء السريع تيمُّنًا بإدوارد الثامن (الملك البريطاني الّذي تنازل عن العرش في عام 1936). هل تهمُّ أسئلة الأحقية هنا؟ مثل، سُميَّ تيمُّنًا بمَنْ ومتى؟ أعتقد أنّه يهم، لأنّ الأحقيّة هي الأمر الوحيد القادر على تعضيد السُلطة أو مقاومتها. يمكن لأحقية السكان الأصليين بالأرض أن تواجه السلطة المُستغلّة لفرض وشرعنة وتطبيع الاحتلال غير القانوني. إنني أعترف بأحقية شعوب الأمم الأولى في القارة الّتي نسميها الآن أستراليا.

من وجهة نظر القانون: أيّ قانون؟

درستُ القانون في أواخر سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن العشرين، لأستوعب المنطق الاستعماري ولغته وأدواته الّتي استُخدِمَت لـ «تطبيع» الاحتلال غير القانوني لأراضي الشعوب الأولى. كان الأساس الاستعماري في هذه القارة قائمًا على الفكرة المُتخيَّلة بأنّها أرض مُباحة terra nullius[3]، كما يجب أن نعلم جميعًا، وهو ما يعني أنّه لم يكن ثمةَ سكان إلى أن جاء البريطانيون، ويبقى تاريخ «أستراليا» مبنيًا على أساس هذا التخيُّل، بصرف النظر عن قرار المحكمة العليا بحق السكّان الأصليين[4].

يتمسك المنطق الاستعماري بالصلاحية القانونية لمفهوم الأرض المباحة، في حين أنّ مركز ثقل الشعوب الأصلية وأحقيتها يستمدان من قوانيننا وثقافاتنا ولغتنا وعلاقاتنا بالعالم الطبيعي. من هنا تنبع أحقيّتنا. لا يزال الاحتلال الاستعماري يفشل في الإجابة عن سؤالنا منذ أكثر من قرنين من الزمان: بأيّ حقٍ قانونيّ تحتل أراضينا؟

3 تعبير من القانون الروماني، ويُترجم إلى الإنجليزية Nobody's land، ويعني أنّ الأرض المعنية أرض مُباحة، ويستخدم المصطلح في القانون الدولي لتبرير احتلال الأراضي من دولة مُعينة.

4 *Mabo v Queensland* [No 2] (1992) 175 CLR 1.

يكشف التاريخ القانوني الأسترالي عن احتلال حصل بالقوة. إنّ الاحتلال بالقوة غير قانوني بموجب القانون الدولي. لكن على المُستوى العملي، يصعب على الدول الواقعة تحت الاحتلال الاستعماري الوصول إلى آليات القانون الدولي وإيجاد تدبير قانوني لعدم شرعيتها. تتجاهل الحكومة الأسترالية التدابير الواردة في القانون الدولي والّتي يُمكن الوصول إليها، كما رأينا في موقفها من بعض القرارات الأخيرة الّتي اتخذتها لجنة الأمم المتحدة للقضاء على التمييز العنصري[5]. تتمتع قوانين الأبورجيين بسلطة قديمة لا تزال قائمة، لكن القوة العسكرية للدولة الّتي نصّبت لنفسها شرعية، تعارض قوانيننا وتقضي عليها وتتجاهلها.

الحلول وسُبل الإنصاف

أين هي سُبل الإنصاف والسلام المستقبلي الّذي يُمكّننا لنكون نحن؛ لنُعرِّفَ بأنفسنا ونقول من نحن؟ لنعيش في رفاهية أكبر من الّتي يوفرها الاحتلال من طعام ومأوى وأمن مائي؟ إنّ فضاء سلطة الدولة الاستعمارية الاستيطانية يُعرّفنا ويتحكم بهويتنا، ويُحدد من نحن، وما إذا كنا سنعيش، وشكل تلك المعيشة. نعيش حياتنا في فضاءٍ من الإيماءات الرمزية التذكيرية الّتي تُعرفنا، بينما تُحدد الدولة دائمًا السيرورات والنتائج.

وضعت الأمم المتحدة إعلان حقوق الشعوب الأصلية UNDRIP، وفيها حددت الحد الأدنى من المعايير لمنع الإبادة الجماعية للشعوب الأصلية، والّتي كانت مستمرة على الصعيد العالمي، وهي معايير يمكن أن تكون شعاراتية فقط في سياق المادة 46 من الإعلان. تسمح المادة 46 للدول الاستعمارية تحديد كيفية أو ما إذا كان يمكن التعامل مع مطالب السكان الأصليين. يُحدد الإعلان معايير لمشاركة السكان الأصليين، لكنّها معايير تقع فقط ضمن حدود سلطة الدولة في تحديد المصالح الّتي سوف يُجرى تغليبها.

تُقدم قوانيننا القديمة تدابير وحلول لتحسين الحياة وتطويرها؛ أي المأوى والغذاء والأمن المائي، وذلك لجميع الناس بوصفها معايير دُنيا للمعيشة. أما قوانين الدولة الاستعمارية الاستيطانية الأسترالية، فتنتهك يوميًا قوانين الأبورجيين نفسها، والّتي ضمنت بقاءهم في الأرض لآلاف السنين. تفرض الدولة مثلًا قوانين تدعم اقتلاع الأشجار، والإفراط في تخصيص المياه للزراعة المروية، وتدمير ممراتنا المائية، والاستخراج والتعدين والتخلص من النفايات السامة والخطيرة في المناطق الريفية.

5 قُدّم طلبُ اتخاذ إجراءات عاجلة من قِبَل مجموعة من شعوب الأمم الأولى الّتي تعيش تحت تأثيرات «تدخل الإقليم الشمالي» إلى لجنة الأمم المتحدة المعنية بالقضاء على التمييز العنصري في شباط/ فبراير 2009. ناقش طلب العمل العاجل تعليق الكومنولث في أستراليا لقانون التمييز العنصري لعام 1975، وفشل الحكومة الأسترالية في التشاور بشكلٍ مناسب مع مجتمعات السكان الأصليين المتضررة، وهو ما ينتهك المواد 2 و5 و6 و7 من اتفاقية القضاء على جميع أشكالٍ التمييز العنصري، والتي فُتحت للتوقيع في 21 كانون الأول/ ديسمبر 1965، ودخلت حيّز النفاذ في 4 كانون الثاني/ يناير 1969. أدى طلب العمل العاجل إلى أن يطلب رئيس اللّجنة القضاءَ على جميع أشكال التمييز العنصري وأن تلغي الحكومة الأسترالية تعليقها لقانون التمييز العنصري. كما طُلب من الحكومة إعادة تصميم تدابير «الاستجابة الطارئة» بالتشاور مع مجتمعات السكان الأصليين المتأثرة بالتشريع.

وفيما لو كنّا الحل الوحيد، فكيف سنضمن الاحتفاظ بمركز ثقل أبورجيني تحت ضغط وإكراه السلطة الاستعمارية؟

يتطلب التفكير في الحلول وسُبل الإنصاف، تفريغَ تفكيرنا من موضوع «الاعتراف» وكيف أنّ برامج «الاعتراف» التي رأيناها تجيء وتروح، ليست إلّا محض ترجمات للبراديغم النيوليبرالي. وانطلاقًا من هذا البراديغم، ما احتمالات تجاوز منطق السلطة الاستعمارية، خاصةً عندما تحدد السلطة الاستعمارية وتُعرّف هذا «الاعتراف».

إنهاء الاستعمار

تتمثّل المعضلة التالية لسلطة الاستعمار في معضلة إنهاء الاستعمار. كيف يُمكن أن يحدث إنهاء الاستعمار؟ كيف يُمكننا أن نبدأ بإنهاء الاستعمار؟ وكيف نتجاوز خلال هذا الطريق خطر الانزلاق إلى أُطُر الاعتراف النيوليبرالية؟ يكتب ناتسو سايتو بأنّ «الأهم من ذلك، هو بدء عملية إنهاء الاستعمار بخيار وقرارٍ واعٍ مُن المُستعمَر، فالأمر ليس خيارًا تتخذه السلطة الاستعمارية»[6].

لكن أولًا، هل تملك الأمم الأولى امتياز الاختيار؛ أي اختيار يتجاوز المستقبل النيوليبرالي والانصهار في الدولة الاستعمارية؟ هل يُمكننا تحمّل تكلفة عدم امتلاكنا خطّةً لإنهاء الاستعمار؟ وعندما نتحدث عن إنهاء الاستعمار، كيف ننقله من سياق الكلام إلى سياق الفعل؟ كيف يمكننا البدء بمسارٍ أبعد من برامج الدردشة التي تنادي بالاعتراف، والّتي رأيناها تعمل بأمرٍ وتفويضٍ منَ الدولة؟ كيف يُمكننا مشاركة الأمور الّتي نعرفها والتخطيط لمسار إنهاء الاستعمارً والحُرية؟

بالنظر في الاحتمالات المستقبلية، تتمثل نقطة البداية في فهم تعقيدات الاستعمار، وكيف يكوّن لنفسه منطقًا لسلطة يُقصد أن تكون صلبة. في الإطار نفسه، ينبغي لنا أن نفهم أيضًا كيف يُساهم الفاعلون داخل هذا المنطق الاستعماري في المشروع المتواصل للاستعمار، وفي وهم أنّ عالم المُستعمِر هو الطبيعي. هل ثمة طريقة أخرى للوجود؟ أو هل يوجد أفق آخر وراء المنطق الاستعماري؟

إن استحالة وجود عالم غير العالم الاستعماري يُعدُ وهمًا، إذ نجح الأبورجيون في إدارة حياتهم عبر إقامة علاقة مع العالم الطبيعي منذ فجر التاريخ. هذه حقيقة وليست وهمًا. لطالما كنا هنا، بوصفنا أممًا وشعوبًا. نحن في تناقض مع مفهوم «الأرض المباحة». وهذا أفق آخر يسبق الاستعمار ويستمر في الوجود تحت أكاذيب الأرض المباحة. ما نقصده بإنهاء الاستعمار هو إعادة دولة الأبورجيين وحياتهم بطريقة لا تكون من خلال استعارة الأشياء الّتي نريد القيام بها لتحسين حياتهم وأساليبهم.

يُعد إنهاء الاستعمار أمرًا ملموسًا وحقيقيًا في حياة الشعوب الأصلية، وليس مجرد برنامج دردشة آخر يمتدُ لعقدٍ من الزمان. إن إنهاء الاستعمار ليس محصورًا في الحديث

6 Natsu Saito, "Asserting Plenary Power Over the 'Other': Indians, Immigrants, Colonial Subjects, and Why the U.S Jurisprudence Needs to Incorporate International Law," *Yale Law & Policy Review*, vol. 20, no. 2 (2002), p. 479.

عن «الحقوق» في المستقبل القريب، ولا يتلاشى في الأجندة النيوليبرالية للدول الاستعمارية. يقعُ إنهاء الاستعمار خارج الأجندة الّتي تعيد إنتاج خطاب حقوق ليس له أيّ صلة أو انعكاس في حياة الأبورجيين، وتقرير مصيرهم بأنفسهم. إنّ مشروع إنهاء الاستعمار بالنسبة للأمم الأولى، يُعد أكثر من مجرد رحلة بحث مدنية وسياسية عن صورة الإنسان، وهي رحلة بحث شاملة عن كل أشكال الحياة، فالإنسان يكون فيها جزءًا من كُل.

لدى لأمم الأولى التزامات بإدامة الأرض لتبقى صالحة للأجيال القادمة، وهي مسؤوليات ما زلنا نحملها. تجري هذه الالتزامات الآن، وفي كثير من الأحيان، تحت الإكراه وفي ظروف صعبة. تواصل الدولة الأسترالية تحديد المستقبل، وتحاول تحقيق التوازن بين مصالح الأبورجيين وتطوّر الشركات والصناعة. غالبًا ما يُهدد هذا المستقبل الّذي نتمسّك به ونحميه. إنّ الممارسات الزراعية غير المستدامة، واستخراج الغاز غير المألوف واستخراج الغاز الطبيعي، وتعدين اليورانيوم والتنقيب عن الفحم، كلها تشكل تهديدات واسعة النطاق لأراضي الأمم الأولى في جميع أنحاء أستراليا[7]. يعيشُ السكان في جنوب وغرب أستراليا على المياه الجوفية منذ مئة عام، أمّا الآن فيتمّ تجفيف الأحواض، وصار البديل الوحيد هو مياه البحر المُحلّاة.

لدى الأمم الأولى فهم عميق لقيمتنا في العالم، ولا يقتصر هذا الفهم على ما يعنيه أن تكون إنسانًا، ولكن من أنت بالنسبة للمكان الّذي أتيت منه وما هي علاقاتك، وماذا يعني أن تكون جزءًا من التانكينكالد والميِّنتاك والبونكانديج، أو عضوًا في أيّ أمة أولى أخرى. ثمة ضغط دائم داخل المنطق الاستعماري تجاه أن يكون أداء الناس حسب الهويات الاستعمارية المفروضة. لقد أنتجت عملية الاستعمار مجموعة من هويات الأرض المُباحة: «السكان الأصليون» و«الرعايا البريطانيون» و«المواطنون الأستراليون» و«الشخصية صاحبة الجذور الأصليّة»، وكلها تُنمذج داخل التسلسل الهرمي الاستعماري.

ما الّذي يعنيه أن تكون أبورجيني؟ كيف نكون ما نحن عليه؟ كيف نحمل المعرفة الأبورجينية الّتي ما زلنا نحملها، رغم أنّها بالنسبة للكثير ليست إلّا قطع مبعثرة أو بقايا مهترئة، بعد عملية الإبادة الجماعية الّتي وقعت مع الاحتلال الاستعماري؟ كيف يُمكننا تعزيز نقاشاتنا ومعرفتنا حول الاستعمار لنتمكن من إنهاء الاستعمار بشكلٍ

7 يقع أكبر منجم لليورانيوم في العالم في روكسبي داونز Roxby Downs بجنوب أستراليا. أدى المنجم ومنشأة المعالجة إلى تدهور البيئة الطبيعية المحيطة، والاعتماد على المياه الجوفية للحوض الارتوازي الضخم حول بحيرة إير، أرض شعب آرابونا. تدّعي الدولة بأنّها حصلت على الموافقة لتطوير المنشأة، إلّا أنّ شيخ شعب الآرابونا كيفن بوزاكوت Kevin Buzzacott ما زال يحتجّ على تطوير المنشأة منذ ثمانينيات القرن العشرين، وأصرّ على أنّه لا يمكن للأبورجيني أبدًا أن يعطي موافقة على التدمير الّذي حصل حول المنجم. تستخدم منشأة المعالجة 50 مليون لتر من المياه يوميًا. تُسحب المياه من احتياطيات المياه الجوفية القديمة الّتي تربط بيننا جميعًا عبر احتياجاتنا المستقبلية، ولا ينبغي إهدارها في تركيز خامات المعادن الثقيلة. تقترح الشركة الكندية Cameco بناء منجم جديد على أراضي شعوب مارتو في غرب أستراليا. يدّعي العديد من شعب مارتو من الأمم الأولى بأنّهم لم يوافقوا على العملية، فواصل شعب المارتو احتجاجهم في عام 2016 على المنجم الجاري تطويره.
Angus Sargent, "Martu People Leave on 110km March in Protest Against Pilbara Uranium Mine," *ABC News*, 4/6/2016, accessed on 20/2/2021 at: https://ab.co/2NDJPe7

أفضل؟ كيف يُمكننا أن نجري مناقشات صادقة لن تُشوّه من قِبَل وكلاء النيوليبرالية؟ كيف يُمكننا أن نكون نحن، وأن نقف وقفةً حقيقة عبر شعوبنا الأصلية؟ يتطلب تحقيق ذلك، الخروج من المنطق الاستعماري، وإدراك أُفُق وفضاء كياننا الأبورجيني.

معضلة الاعتراف: لماذا يعتبر إيجاد إطار عمل جديد للأبورجيين ضروريًا لمستقبلهم؟

ما الّذي نقصده بالاعتراف؟ ومن وجهة نظر من نعملُ نحن على ترجمة وتفسير «الحقوق»؟ من يُقرر ماهية حقوق الأبورجيين؟ هل ينبغي تطبيق إطار عملٍ جديد عند صياغة حقوق الأبورجيين؟ إذا تشكلت حقوقنا بفعل شعبنا الأصلي (أبورجيتنا)، هل يُلزمنا ذلك بأن نبقى أبورجيين كما كنا دائمًا، وكما سنبقى في المستقبل؟ من وجهة النظر هذه، يجب التوضيح بأنّ تأثير أيّ موافقة على التنازل أو إسقاط الحق أو الاستيعاب، سيكون له أثر عكسي على حقنا المستمر في أن نكون وأن نتمتع بحقوقنا بوصفنا أبورجيين. إنّ إقصاء النمط الأبورجيني في الوجود هو ما أدّى إلى تأسيس الإمبراطوريّة.

يجبُ أن ننظر في التاريخ القانوني الأسترالي بعمقٍ أكبر من أجل تعزيز هذا الرأي. كيف قامت «أستراليا» على أراضي أسلافنا؟ وعلى أيّ علم وجودي ومعرفي؟ لقد أُقصَتْ معارفنا وقوانيننا القديمة بعد أن فُرِضَتْ الإمبراطورية والمستعمرات وأُنشِأَ القانون الأسترالي. إن تأطير وجهات نظر الأبَورجيين تجاه العالم بنمطِ وجودٍ التزامي وعلائقي، أكثر أهمية من مُقاربات الحقوق الفردية. على سبيل المثال، أنا أنتمي إلى دولة ما بسببِ صلاتي وعلاقاتي، وليس لأنّني أمتلك صكّ ملكية. إنّ مُقاربة الملكية الفردية يجعلُ الانتماء الجماعي والاهتمام ببلدٍ ما، ضعيفًا أمام قوة أيّ أمر يدخل ضمن نموذج بقاء الأمور على حالها لنموذج «التقدُّم».

تشكَّل الدستور الأسترالي نتيجة عملية بناء وتأسيس وتشكيل أساس قانوني لما كان (ولا يزال) مهمة استعمارية. لقد كانت ولا تزال عملية تحويل الدول الاستعمارية القانونية والمستقلة إلى بُنى موجودة في الكومنولث Commonwealth. كان الدستور الأسترالي (ولا يزال) يدور حول حصول الإمبراطورية البريطانية على وضعٍ دستوري وشرعية، لغزو القارة الّتي تسمى الآن أستراليا. وطوال عملية تكوين وشرعنة ما هو استعماري، اعتُبِرَ أنّ الشعوب الأبورجينية الأصلية لم تكُن موجودة في الماضي، وهي في الحاضر مشكلة محلية. وُصِفنا على أننا شعوبٍ غير متحضرة و«متوحشة» و«متخلفة»، وهو وصف اشتُقَّ من أُسُس النظام القانونيِّ الأسترالي وينعكس عليه.

إنّ التعبير اللّاتيني Terra nullius، يعني أنّ الأبورجيين لم يتمتعوا بصفة البشر قانونيًا، بل تقاسموا هذا التعبير مع النباتات والحيوانات. ولا أرى هذا من وجهة نظري أمرًا سيئًا، فبحسب النظام القانوني الأبورجيني، تربطنا جميعًا صلة قرابة (البشر والنباتات والحيوانات)، لكن ومنذ عام 1788؛ أي منذ لحظة الغزو، لم يكن المُستعمِر يعرف أو يعي أيّة طريقة غير طريقته للعيش تحت القانون. لم يتطور الاعتراف بنا

كأمم أولى حتى هذه اللّحظة، إلى أيّ درجة مرموقة من التفاهم والمشاركة على نصف الأراضي الأسترالية.

حسب المنطق الاستعماري، لم يكن من المتوقع أن ينجَو الأبورجيون بعد الغزو والإبادة الجماعية واحتلال الأراضي، بل كان المتوقع لنا جميعًا إمّا الموت أو الانصهار أو الاندماج، ولم يكن في الحسبان أبدًا اعتبارنا شعبًا ذا سيادة وفق شروطنا. ورغم كل هذا، بقينا على قيد الحياة، ولا زلنا هنا حتى اليوم، ولن نتنازل أبدًا عن أبورجينيتنا. وهكذا نجت الأمم الأولى من الاستعمار، وتستمر حاليًا بالحياة.

الشعوب الأولى ومُجتمعات الشتات

آثار التضامن العابر للحدود

يوجينا فلن

أعتبرُ مشاركتي في العمل التضامني في العديد من المجتمعات المتقاطعة امتدادًا طبيعيًا لهويتي. بالنسبة لشخص مثلي عُومل بعنصرية، تأثرت كثيرًا بكيفية ممارسة العنصرية في ما تُسمى الآن أستراليا. أولًا وقبل كل شيء، بصفتي امرأة أبورجينية جُرِّدَتْ من أراضيها عن طريق انتشار العنصرية. ثانيًا، بصفتي امرأة ماليزية-صينية تمكّنت والدتها من المرور عبر الحدود الأسترالية الّتي أوجِدَتْ في أواخر ستينيات القرن الماضي. وعليهِ، يُنظر إليّ على أنّني تهديد لأستراليا البيضاء. ثالثًا، بصفتي امرأة غيرت ديانتها إلى الإسلام، وهو ما يُعرِّضني تلقائيًا للعنصرية المفروضة على الأجانب الّذين يُحاولون «الاستيلاء» على «طريقة عيش» الأسترالي الأبيض، وذلك على الرغم من ارتباطي بالأرض الّذي يمتد لآلاف الأجيال. إنّ فهمي لكيفية ممارسة العنصرية داخل أستراليا، والّتي تهدف إلى الحفاظ على أمة بيضاء من خلال نزع الملكية وفرض الحدود العنصرية، أمرًا أساسيًّا لكيفية تركيز عملي على النشاط المناهض للعنصرية. كما أدى إلى نزعة طبيعية تجاه الجمع بين مختلف مجتمعات الشتات المُعرّضة للمعاملة العنصرية، للعمل معًا في حالة من التضامن مع الشعوب الأولى. يُمكن قراءة هذا المقال بوصفه انعكاسًا للعقدِ الأخير من الانخراط في العمل التضامني.

أود أن أبدأ بالتأمل في العمل التضامني لمشروع رايز للاجئين Survivors and Ex-Detainees or RISE. نظرًا لتنامي أهمية التضامن في كيفية عمل النشطاء ضد العنصرية في أستراليا، فقد حافظت منظمة رايز على موقف داخلي مركّزي لا هوادة فيه، يُجسده شعارهم «لا غنى عنا فيما يخصنا». أدى عدم انخراط رايز في الحكومة في كثير من الأحيان، فضلًا عن رفضهم للسياسة الشعبية لوسائل التواصل الاجتماعي، إلى جعلها غير معروفة ظلمًا، رغم أنّ عملهم في التضامن كان من أكثر الأعمال المحورية والأساسية للعمل التضامني اليوم وبعد عشر سنوات. وبوصفها تجمعًا للّاجئين وطالبي اللُّجوء والمحتجزين السابقين بحثًا عن الأمان في أراضي الأبورجيين الّذين لم يتنازلوا عن أرضهم وسكان جزر مضيق توريس، فقد حملت رايز المسؤولية على عاتقها، وتواصلت مع الشعوب الأولى للعمل بنشاط في تضامن معهم. وأظهرت رايز منذ عام

2009 على الأقل، فهمًا للقضايا المتعلقة بكيفية تفاعل مفاهيم السيادة والحدود مع بعضها البعض، ثم أوضحت كيف تُظهر هذه التفاعلات السياسة والمجتمع الأسترالي. شرحت رايز بشكلٍ حاسم أنّ السياسات والممارسات العنصرية المتعلقة بالشرطة والاحتجاز تسعى لوضع الشعوب الأولى ومُلتمسي اللّجوء، في السجون ومراكز الاحتجاز بمُعدّلات عالية، وبشكلٍ مقلق.

ولا شك أنّ يد التضامن الممتدة هذه قد ردّت الجميل. كفرد، أعمل مع رايز بانتظام لتحقيق تطلعاتهم الذاتية. عملتُ مع عددٍ من المنظمات الأهلية مثل تحرير الأمم الأولى First Nations Liberation ومحاربي المقاومة الأبورجينية Warriors of the Aboriginal Resistance، وعملتُ أيضًا مع رايز، ولسنوات من بناء التضامن البطيء والمُتَّئِد والّذي بلغ ذروته مؤخّرًا في الأحداث الرئيسية في الجدول الزمني للعمل التضامني. الأهم من ذلك، كان اجتماع المؤسسات السابقة في حزيران/ يونيو من عام 2016 معًا، لتنظيم حدث «الطمأنينة والملاذ»، الذي قدّم فيه الناشط الأبورجيني العم روبي ثورب Robbie Thorpe جوازات سفر أبورجينية للّاجئين وطالبي اللّجوء والمحتجزين السابقين.

قال المحتجز السابق ومؤسس رايز راميش فرناندیز Ramesh Fernandez عن هذا الفعل: «تعترف رايز في هذا اليوم ونيابة عن مجتمع اللاجئين بسيادة السكان الأبورجيين على هذه الأمة، ووقوفها متضامنةً مع الأمم الأولى المُستلبة في هذا البلد. نلتزم بالقتال من أجل العدالة وفقًا للشروط الّتي وضعها الأبورجيون ولا سواهم». ليرد عليهِ ميركي أونوس Meriki Onus من منظمة محاربي المقاومة الأبورجينية بالمثل: «يرحب محاربو المقاومة الأبورجينية بهذا الحدث التاريخي مع منظمة رايز ومنظمة تحرير الأمم الأولى. إنّ التزام رايز بقبول جوازات سفر الأبورجيين وقانون الأبورجيين والقانون العرفي ينعش ويمهد الطريق لجميع الوافدين الجدد إلى هذا البلد»[1]. لا يُعد إصدار جوازات السفر بالطبع أمرًا جديدًا أو استثنائيًا بالنسبة لـ RISE وWAR وFNL. شارك كل من العم روبي ثورب والعم الراحل راي جاكسون في إصدار جوازات السفر منذ عام 2012 على الأقل، وقدم الناشط الأبورجيني مايكل مانسيل Michael Mansell جواز السفر الأبورجيني لأول مرة في عام 1988، عندما أُصدِرَت لوفدٍ أبورجيني كان مسافرًا إلى ليبيا[2]. يُنظر إلى إصدار جوازات سفر أبورجينية للّاجئين وطالبي اللّجوء، أنّه عمل تضامني، وإجراء مهم ذي بُعد رمزي وعملي في آن.

لقد نجحت رايز في بناء التضامن بعناية من خلال العمل الجاد والتفكير العميق المتعلق بمختلف قضايا العنصرية والسيادة والحدود. يجب الانتباه إلى أنّ التضامن من قِبَلِ مجتمعات الشتات تجاه الشعوب الأولى لم يكن دائمًا قويًا، كما يتّضح من

1 "Sovereignty + Sanctuary: A First Nations/ Refugee Solidarity Event," *RISE*, 13/7/2016, accessed on 21/2/2021, at: https://bit.ly/3pqAKTs

2 "More than 200 Migrants to Receive Aboriginal Passports," *Green Left*, 6/8/2012, accessed on 21/2/2021, at: https://bit.ly/2N3tdwL

خلال عمل رايز. أعلمُ تمامًا بوصفي امرأة أبورجينية صينية مسلمة، بأنّ التضامن بين المهاجرين إلى أستراليا (على وجه التحديد المهاجرين غير الأوروبيين وغير البيض) والشعوب الأولى، لم يكن دائمًا قويًا كما هو عليه اليوم. على سبيل المثال، كتبتُ في عام 2009 عن تجمّع حضرته في مدينة أديليد في وقتٍ قريب من الحرب على غزّة:

> «ترجل سياسي ليتحدّث إلى الحشد البالغ عدده حوالي 1800 شخصًا. بدأ بالإقرار بأنّ الاحتشاد يجري على أرض كاورنا Kaurna(الشعب الأبورجيني القاطن في الأرض عرفيًا)، وأنّ المكان مناسب للغاية للحديث عن الغزو غير الشرعي والاحتلال والسلب، على أرض أبورجينية، خصوصًا أنّ السكان الأصليين في أستراليا يعرفون تمامًا ما يعنيه الغزو والاحتلال والسلب. لسوء الحظ، لم يكن التصفيق لما قاله السياسي حارًا كما يتوقع المرء. بدا غالبية المسلمين والعرب في الحشد مرتبكين بشأن السبب الّذي دفع هذا السياسي إلى التحدث عن مسألة حقوق أراضي الأبورجيين. عندما جُلت بنظري في القاعة، لاحظتُ أنّ هناك عدد من الأبورجيين غير المسلمين بين الحضور، وافترضتْ وقتها بأنّهم متضامنون مع العدالة. أثارت رؤية أولئك الأبورجيين أمرًا في داخلي، وتركتني أتساءل ما إذا كان هذا التضامن عَرَضًا للعلاقة بين المُجتمعين»[3].

لحسن الحظ، لم أكن الوحيدة الّتي بدأتْ بالتساؤل حول اللّامبالاة والعنصرية الموجودة في مجتمعات الشتات الإسلامية في أستراليا في ذلك الوقت. بعد عام واحد فقط بدأت العمل مع عامر رحمن (ذي الخبرة الطويلة في قضايا العنصرية ضد السود)، بشأن العنصرية ضد السود داخل المجتمع الأسترالي المسلم. وبحكم خبرته ومشاركته في عدد من الإجراءات المباشرة بشأن قضايا احتجاز اللّاجئين والحرب على الإرهاب وفلسطين، فهم رحمن أنّ العنصرية الّتي تؤثر على الشعوب الأولى ومجتمعات الشتات غير الأوروبية وغير البيضاء، مرتبطة ببعضها البعض، وتصلح كموقعٍ للعمل التضامني.

كانت أستراليا في تلك الفترة قد خرجت لتوها من قرابة عقدٍ من النزعة المحافظة المتشددة بقيادة رئيس الوزراء آنذاك جون هوارد John Howard. شهدت تلك الحقبة صعود السياسات المعادية للآسيويين والمعادية للأبورجيين وحرب ما بعد الحادي عشر من أيلول 11/9 على الإرهاب، وغزو العراق، وبروز المشاعر المعادية للمسلمين في وسائل الإعلام، وهجمات هوارد المتكررة على الأبورجيين التي توّجت بالأبوية الجديدة neo-paternalistic والاستيلاء على الأراضي، ضمن تدخل الإقليم الشمالي[4].

3 Eugenia Flynn, "The Hard Questions," *Eugenia Flynn*, 2/2/2010, accessed on 1/5/2021, at: https://bit.ly/3b7wsLs

4 كان تدخل الإقليم الشمالي أو «الاستجابة الوطنية لحالات الطوارئ في الإقليم الشمالي»، والمعروفة أيضًا باسم «التدخل» عبارة عن مجموعة من التدابير الّتي فرضتها التشريعات الّتي تؤثر على السكان الأصليين الأستراليين في الإقليم الشمالي من أستراليا. وشملت التدابير قيودًا على استهلاك الكحول والمواد الإباحية (بما في ذلك الحظر الكامل على كليهما

في ظل هذه الخلفية للسياسة العالمية والمحلية، وبوصفه مسلمًا غير أسود من جنوب آسيا، فإنّ تضامن رحمن مع الشعوب الأولى لم ينطوِ على دعم الشعوب الأولى في نضالنا فقط، بل في تحدي مظاهر معاداة السود داخل المجتمع المسلم أيضًا. تضمّنت بعض الأعمال التضامنية المبكرة لرحمن. الجمع بين المسلمين غير السود والمسلمين السود والشعوب الأولى (مسلمين وغير مسلمين)، لمناقشة قضايا العرق والعنصرية. وعُقدت في عام 2010 حلقة نقاش حول «العرق والهوية في المجتمع المسلم»، حيث تحدثتُ إلى جانب مُفكرين بارزين في الشتات الإسلامي العالمي. نظّمَ رحمن بشكلٍ أساسي في وقت لاحق من العام نفسه «مؤتمر تضامن المسلمين الأبورجيين»، لمعالجةً قضايا اللامبالاة والجهل في المجتمع المسلم الأسترالي. وكما ورد في النشرة الإعلانية الخاصة بالمؤتمر: «هذا مؤتمر من يوم واحد وخاص بالمسلمين، لتعريفهم بقضايا العدالة الاجتماعية الّتي تؤثر على مجتمع الأبورجيين، وسكان جزر مضيق توريس في أستراليا، بما يشمل الحقوق المتعلقة بالأراضي وتدخل الإقليم الشمالي»[5].

كان العمل التضامني المتواصل لرحمن داخل المجتمع المسلم فعالًا في تغيير مواقف ومعتقدات مجتمعات الشتات المسلم في أستراليا. شعرتُ في السنوات الّتي أعقبت أعمال التضامن هذه مباشرة، بتحولٍ كبير في فهم المجتمع المسلم الأسترالي لعلاقة أستراليا القمعية والعنيفة مع الشعوب الأولى. وصُدّرت في الوقت نفسه السياسة العرقية الأمريكية بشكلٍ متزايد إلى بقية العالم عن طريق الإنترنت، من خلال المدونات والنشر الرقمي ووسائل التواصل الاجتماعي. إنّ عمل رحمن المُبكّر على مكافحة العنصرية في المجتمع الإسلامي، إلى جانب هذه الظاهرة العالمية، أثّر على الطريقة الّتي تعاملت بها مجتمعات الشتات الأسترالية المسلمة مع الشعوب الأولى، وسهّلت التضامن بين المجموعتين. من الشائع الآن رؤية كُتل إسلامية تُشارك في مسيرات من أجل العدالة للشعوب الأولى، وقد بدأت المنظمات الإسلامية في تثقيف مجتمعاتها بشأن القضايا المتعلقة بالشعوب الأولى.

ثمة تداخل كبير بالطبع بين الجالية الفلسطينية والجالية المسلمة في أستراليا. لقد تغيّر الكثير فيما يتعلق بالتضامن، منذ التجمع الّذي حضرته من أجل غزة في عام 2009. لقد عقد الفلسطينيون المقيمون في أستراليا، وكذا الشعوب الأولى، مؤتمراتَ تضامن وجلسات نقاش وبيانات مكتوبة مشتركة، وغيرها من الفعاليات. وفيما يتعلق بالتضامن العابر للحدود، فأنا أرى الآن العديد من الفلسطينيين يعيدون تأكيد الروابط القديمة بين الوعي العالمي عند السود والنضال الفلسطيني. هناك تجاوب وتضامن مع الشعوب الأولى، حيث تعترف كلتا المجموعتين بتعرُّضهما للقمع الموازي تحت الاحتلال الاستعماري الاستيطاني. والأهم من ذلك كله أنّ هذا التجاوب والتضامن

في بعض المجتمعات)، وتغييرات في مدفوعات الرعاية الاجتماعية، وتغييرات في تقديم وإدارة خدمات التعليم والتوظيف والصحة في الإقليم.

5 "Indigenous Muslim Solidarity Conference," *Whenua Fenua Enua Vanua*, 11/11/2010, accessed on 21/2/2021, at: https://bit.ly/3jVsDx5

يجري من خلال إدراكٍ متزايد بأنّ الانتماء إلى الشعوب الأصلية والسود، موجود معًا في الشعوب الأولى لما بات يسمى أستراليا.

وهنا تمامًا تكمن الآثار الإيجابية للتضامن العابر للحدود في العلاقة بين الشعوب الأولى ومجتمعات الشتات. غالبًا ما يصعب على السكان غير الأبورجيين فهم الفروق الدقيقة المتعلقة بكيفية تفعيل العرق في أستراليا، ولأيِّ غرض. تُهيمن السياسة العرقية الأمريكية حاليًا على الخطاب الأسترالي، والّذي يُنقل عبر وسائل التواصل الاجتماعي والإنترنت. ودون فهم دقيق للسياقات المحلية، يُصبح التضامن العابر للحدود واهنًا. يشتمل هذا الفهم الدقيق في حالة أستراليا، الطريقة الّتي يعمل بها العرق لنزع ملكية الشعوب الأولى، لأنّهم ذوي بشرة داكنة أولًا، ثم تأتي بعد ذلك عنصرية معادية للمسلمين واللّاجئين والعرب، من أجل إبقاء الحدود مغلقة أمام المهاجرين غير البيض.

وفي هذا السياق، يأتي دور مجتمعات الشتات، مثل مجتمعات الشتات الفلسطيني، لتساهم بشكلٍ فعّال في النضالات العالمية ضدّ الظلم. وكما شهدنا في العمل التضامني لراميش فرناندِيز ورايز وعامر رحمن، فإنّ التفكير المُتعمِّق في قضايا العرق والعنصرية مهم لمجتمعات الشتات، وليفهموا النضالات المحلية، وكيف يُغذِّون هذه التفاهمات لدى مجتمعات الشتات العالمي، بما يأتي بآثارٍ إيجابية على التضامن العابر للحدود.

المعرفة والثقافة والمنهج

تأملات حول الاستعمار وإنهاء الاستعمار[1]

ساري زنانيري

وقعتْ الكثير من الأحداث منذ مؤتمر «التضامن بين الفلسطينيين والسكّان الأصليين: مواجهة القوميات الاستعمارية» (6-8 تشرين الثاني/ نوفمبر 2019)، بدءًا باندلاع جائحة عالمية، سلّطت الضوء على الطبيعة التمييزية إلى حدٍّ كبير، المُتعلِّقة بتخصيص الدولة للموارد، وصولًا إلى تأثيرات من يحكُم، وكيف تُحكَم الشعوب المُختلفة. في وقتٍ يشهد ضغوطًا عالمية غير مسبوقة، تجسّد هذا السؤال في حادثة مقتل جورج فلويد George Floyd يوم 25 أيار/ مايو 2020، الأمر الّذي أعاد تنشيط حركة حياة السود مُهمّة Black Lives Matter، ما أدى إلى إجراء مقارنات بين حالات وفاة السود في الحجز في أستراليا ومقتل إياد الحلاق في القدس بعدها بأسبوع.

أظهرت الشهور الأولى من عام 2020 قوة الثقافة في تعزيز الدولة، وكذلك في معارضتها. تُمثّل النقاشات الحالية حول التماثيل والنصب التذكارية الاستعمارية، أفضل الأمثلة على قوة الثقافة والطرق التي يُعبّأ فيها الوعي العام لصالح الدولة أو ضدها. وفي فهمنا للسياق السياسي المعاصر، غالبًا ما يتمّ تجاهل العلاقة المُتداخلة بين مشاريع الحداثة والهياكل الفعّالة والمترابطة للاستعمار الاستيطاني.

أدّت موروثات عصر التنوير الساعية لفهم العالم الّذي نعيش فيه، إلى خلق أنماط جديدة لإنتاج المعرفة الاستعمارية. وليس من قبيل المصادفة أن يسافر جوزيف بانكس Joseph Banks (1743-1820) بهدف مواصلة حياته المهنية العلمية كعالم نبات، على متن سفينة إنديفور في أول رحلة علمية للكابتن جيمس كوك James Cook (1768-1771)، والّتي رُسِمَ فيها الساحل الشرقي لما بات يُطلَق عليه منذ ذلك الحين «أستراليا». وكذلك، شكّلت حملة نابليون على مصر (1798-1801)، بداية اهتمام استعماري أوروبي متجدد في الشرق الأوسط، إذ أخذ نابليون معه 167 باحثًا وعالمًا كجزء

1 أود أن أشكُر بشكلٍ خاص كريسولا ليونيس على مساهماتها القيّمة وتعليقاتها على هذه الورقة، وكذلك أشكر سوزانا هينتي وغاري فولي لدعوتي إلى المشاركة في مؤتمر «التضامن بين الفلسطينيين والسكان الأصليين».

من مساعيه. لقد خلق إنتاج المعرفة نماذج جديدة لطريقة فهم الأوروبي للعالم، فطُبقّت سرديّة «الاكتشاف» على المعرفة، تمامًا كما طُبقّت على الأرض.

عند النظر في تداعيات عمل بانكس النباتي وفريق علماء نابليون، نجد أنّ كلاهما أنتج في النهاية أشكالًا متعددة من المعرفة. تغلغلت المعرفة العلمية لـ «المُكتشَفات الجديدة» في الدوائر الأكاديمية الراسخة في سرديات التنوير، ممّا أدى إلى الكثير من الجدل. كانت هذه المعرفة ذات قيمة أيضًا بالنسبة للدول الّتي تحمّلت تكاليف هذه الحملات، سواء على مُستوى التجارة (في المحاولات المبكرة لبناء قناة السويس)، أو لتطوير المستعمرات العقابية (الّتي قدمت حلولًا للمشاكل المحلية داخل المملكة المتحدة والناشئة عن التصنيع والانغلاق والخلافات المحلّية وفقدان الأراضي الاستعمارية في أمريكا الشمالية)[2]. كان لمثل هذه المعرفة أيضًا، تأثير أوسع على الشعوب في داخل أوروبا، ما أدى إلى خلق ثقافة المخيالات الشعبية لهذه الأماكن «البعيدة».

لقد سُلِّطَ الضوء على مصفوفة المعرفة هذه من نواحٍ كثيرة في مجالاتٍ مثل التصوير الفوتوغرافي في فلسطين وعن فلسطين، والّتي تُلاحظ في الكثير من الخطاباتِ الأكاديمية والجمع الحكومي للمعلومات والمخيالات الشعبية، وهو نمط متكرر في الحياة العملية للمصورين مثل تشارلز ويلسون من المهندسين البريطانيين الملكيين، أو أنتونين جاوسن من المدرسة التوراتية أو جون وايتينج من المُستعمرة الأمريكية. يُظهِر ذلك المستويات المتعددة الّتي تعمل فيها الثقافة. ولكن يُظهِر أيضًا اختبار العلاقات الوثيقة والطويلة الأمد مع المُجتمعات العربية بالنسبةِ للمثالين الأخيرين، والطرق التي قد يؤدّي بها إنتاج المعرفة الغربية المُتعاطفة في النهاية إلى الإضرار بالمُجتمعات الأصلية التي كان من المفترض أن تساهم فيها هذه المعرفة.

كان التوريت[3] من المفاهيم المهمة، وهو ينطوي على عملية عُرفت فيما له علاقة بالتصوير الفوتوغرافي في فلسطين، حيث ركّز التصوير على التاريخ التوراتي القديم مع محو الحداثة الفلسطينية. وبينما طُبّق هذا في فلسطين، إلّا أنّ آثاره العابرة للحدود تجاوزت ذلك بكثير.

كان اكتشاف موقع سدوم التوراتي المفترض على يد عالم الآثار الفرنسي لويس فيليسين كينيارت دي سولسي Louis Felicien Caignart de Saulcy في عام 1851 أحد الأمثلة على ذلك. فرغم إثبات الادّعاء الكاذب بالاكتشاف لاحقًا، إلّا أنّ أثر ذلك

---

2 مستوطنة نائية (غالبًا ما تكون جزيرة أو مستعمرة بعيدة)، تستخدم في نفي السجناء وعزلهم عن بقية المواطنين في مجتمع من المساجين، يشرف عليه آمر أو حاكم ذو سلطة مطلقة. كانت المستعمرات العقابية فيما مضى تُستخدم لاستغلال السجناء في الأشغال الشاقة العقابية في جزء من البلاد (هو في الأغلب مستعمرة) لم يتطور اقتصاديًا بعد، وعلى نطاق أوسع من مجرد مزرعة سجن. وقد استخدمت بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الإمبراطوريات الاستعمارية مناطق من أمريكا الشمالية وأستراليا وكاليدونيا الجديدة وغيرها كمستعمرات عقابية، حيث لم تكن أوضاع السجناء فيها أفضل كثيرًا من الأوضاع في مجتمعات العبيد.

3 استخدمتُ كلمة التوريت مقابلًا للكلمة الإنجليزية Biblification، أي بمعنى جعل الشيء توراتيًا أو التركيز على الجانب التوراتي في صورة ما، وتناسي ومحو أيّ أثر باقي لا يرتبط بالسياق التوراتي.

كان خطيرًا. كان جون فروست John Frost ميثاقيًا[4]، ونُقل إلى مستعمرة أرض فان ديمن العقابية لدوره في حركة الطبقة العاملة التحرُّرية في نيوبورت عام 1839، وعاد إلى بريطانيا بحماسة جديدة. وبحلول عام 1856، كان قد حضر خطاباته عبر شمال إنجلترا ما يصل إلى 20 ألف شخص، فأصبح هدفه إلغاء نقل المحكوم عليهم إلى المُستعمرات العقابية، بحجة أنّ سدوم جديدة قد بُنيت في الأراضي البِكر[5].

تؤكد صياغة النقد السياسي مرّةً أخرى، بمصطلحاتٍ توراتية على موضوعات الثقافة، وهو ما يُضفي الشرعية على النقد الطبقي داخل النموذج الثقافي البريطاني المُهيمن. كان التزاوج الناجح بين المعرفة العلمية والأخلاق الغربية المسيحية، تداعياتٍ كبيرة على الطرق الّتي استُصلِحَتْ فيها هذه الهوامش الاستعمارية، لتخدم بمُفرداتٍ ثقافية المراكز الاستعمارية في أوروبا.

هُناك مثال آخر وثيق الصلة بالموضوع، وهو خصوصية مصطلح الأراضي البِكر، حيث يُشير إلى منظور ثقافي مُعيّن، وهو تدمير الخيال الأوّلي حول حديقة عدن. تُظهر مثل هذه المصطلحات انعدامًا أساسيًّا في الفهم الثقافي لجوهر الاستعمار، حتى في سياق الخلاف السياسي. فعند استحضار عدن، ينشأ افتراض ضمنيّ بأنّ الأمم الأصلية كانت تعيشُ مثل أولئك الّذين عاشوا في حالة من الجهل الساذج، في عالم يُشبه عالم ما قبل أكل آدم وحواء من شجرة المعرفة، وإن كان ذلك في مواجهة بريطانيا الصناعية ومعرفتها الاستعمارية، الّتي أنتجت سدوم الجديدة.

كان مؤتمر «التضامن بين الفلسطينيين والسكان الأصليين» بالنسبة للجيل الجديد، هو المرة الأولى الّتي يربط فيها منتدى رسميًّا بين نضالين من أجل سيادة السكان الأصليين المنفصلين، لكن متوازيين في الوقت نفسه. وتربط أُطُر الشبكات الإمبراطورية البريطانية وآثار الاستعمار البريطاني بطريقةٍ واقعية جدًا، وأستراليا المعاصرة بفلسطين التاريخية. لقد خلقت التجربة المشتركة للاستعمار الاستيطاني خسارات مماثلة للأرض والمعرفة والثقافة، ممّا أوجدَ مؤتمر فيه مساحة من التعاطف والتضامن.

يُعد سؤال المنهج مُهمًا للأكاديميين، فهي تتحكم في كيفية إجراء البحث وجمع البيانات وتحليلها، وكيف تُنتَج المعرفة ولمن، وذلك بوضع الأسئلة المُتعلِّقة باللُّغات الّتي تُنتَج بها هذه المعرفة جانبًا. ونظرًا للطبيعة الأكاديمية للمؤتمرات والإشكاليات المرتبطة بالثقافة الأكاديمية الموضحة أعلاه، كانت إحدى نقاط القوة في المؤتمر هي منهجيته متعددة التخصصات، والمنتدى الذي أُنشئ للأكاديميين والفنانين والناشطين. عند النظر في نماذج الثقافة، خلقت هذه المنهجية مساحة لمُشاركة أنماط متعددة من المعرفة.

---

4 الميثاقية هي حركة عمالية إنجليزية نشطت في القرن التاسع عشر ميلادي على أساس المبادئ الّتي اشتمل عليها «ميثاق الشعب People's Charter»، الّذي وضعه الزعيم الراديكالي اللّندني وليم لوفيت William Lovett عام 1838م. ومن أبرز هذه المبادئ الاقتراع السري، وإلغاء شروط الملكية المفروضة على المرشحين لعضوية البرلمان، وجعل ولاية البرلمان عامًا واحدًا.

5 مصطلح يُستخدم للإشارة إلى الأراضي غير المُستغلة بعد، ولم يسكنها بشر.

في عصر يُهيمن فيه النقاش حول الحروب الثقافية ومسألة إنهاء الاستعمار على النقاش العام، فإنّ أهمية معالجة الجوانب المختلفة للثقافة أمر أساسي. وقد أكّد النقاش الدولي حول التماثيل والنصب التذكارية الاستعمارية على سبيل المثال، من خلال أسئلة حيوية، بما في ذلك عودة المسروقات الاستعمارية والتواريخ التابعة وإحياء معارف السكان الأصليين وإضفاء الشرعية عليها، ومسائل التعويض الاستعماري. وهذا يتطلب تحوّلًا أساسيًا وواسع النطاق في المخيال الشعبي لبدء سيرورات إنهاء الاستعمار. لقد أدت السيرورات التكافلية للتوريت، وسيرورات الحداثة والاستعمار الاستيطاني إلى تطبيع إنتاج المعرفة الاستعمارية، ونحن بحاجة إلى مناهج متقاطعة وتوفيقية لمُعالجة سيرورة إنهاء الاستعمار الهائلة.

سمحت بنية مؤتمر «التضامن بين الفلسطينيين والسكان الأصليين» إلى تثليث جديد للفن والنشاط والأكاديميا، التي عكست قطاعًا عريضًا من الصناعات الّتي تتحمل عبء التعامل مع ثقافةٍ ما، بدءًا من إنتاجها وحتى النزاع عليها، وصولًا إلى تبنّيها. هذا المزيج ضروري لمواجهة تاريخ إنتاج المعرفة الاستعمارية، سواء أكان أكاديميًا، أو جمع معلومات حكوميًا، أو متخيلًا شعبيًا. أعطى نموذج المؤتمر أدوارًا متساوية لهذه الحقول الثلاثة، والّتي منحت الشرعية فعليًّا لأصواتٍ وأنماطِ معرفة مختلفة.

إنّ هذا الموقف غير الهرمي تجاه الإنتاج الثقافي أتاح للناشطين والفنانين والأكاديميين فرصة الاجتماع في المساحة نفسها، ولكن أيضًا للعمل في مجالات إنتاجهم الثقافي الخاصّة. بالنسبة للمهمشين ثقافيًا، كان لهذه البيئة أيضًا تأثير جانبي في استخدام إحدى أشكال المعرفة، لإضفاء الشرعية على الآخر، مثلما جرى عندما دمج فروست بين المعرفة الأكاديمية والدين.

تأملات حول مؤتمر التضامن بين الفلسطينيين والسكّان الأصليين

سباندانا بيلاريسيتي

بالنسبة لشخصٍ ليس من السكان الأصليين ولا من الفلسطينيين، فإنّ حضور مؤتمر «التضامن بين الفلسطينيين والسكّان الأصليين: مواجهة القوميات الاستعمارية» (6-8 تشرين الثاني/ نوفمبر 2019)، ساعدني على مواجهة **الفوضى**[1] المحيطة بتاريخ دول الاستعمار الاستيطاني. وفّر لي المؤتمر أيضًا مساحة لتذكّر أبطال مناهضة الاستعمار الّذين شجعونا على أن نستمد أفعالنا وسياساتنا المناهضة للاستعمار من الحاضر، وتعقبها في الماضي. وهو ما يُمكِّننا من بدء مسار إنهاء الاستعمار باستخدام التضامن العابر للحدود. أتناول في هذا المقال بعض تأملاتي وملاحظاتي حول المؤتمر.

كشف المؤتمر عن «رؤية مستقبلية لا تُقاوم» حَلم بها وبتحقيقها مقاتلو الحرية، والثوّار من قبلنا. وتتطلب هذه الرؤية الربط بين ماضينا المناهض للاستعمار ومستقبلنا الساعي لإنهاء الاستعمار[2]. ينبغي علينا تجاوز «تصوُّراتنا الضامرة»[3]، الّتي تكافح لتُحقِّق عالمًا بلا حدود ولا سجون ودون احتجاز للّاجئين، وبلا عنف يلحق بالجسد البشري وغير البشري، وبلا عنف يلحقُ بالأرض[4]. علينا الربط بين كيفية تعامل الإمبراطوريات الاستعمارية مع الشعوب الأصلية وأراضيهم في جميع أنحاء العالم، من خلال دراسة كيف سيطرت الأمم المستوطِنة على مجتمعات السكان الأصليين، عن طريق الوصول إلى الممرات المائية والجوية والبرية والموارد الّتي توفرها[5].

1 استخدمت كلمة Dismemory، الّتي سمعتها للمرة الأولى من خطاب نادية بن يوسف، والتي جعلتني أُفكر وأشكك بطريقة إنشاء الخطاب، وفي الطريقة الّتي يؤثر فيها هذا الخطاب على الذاكرة الجمعية المرتبطة بالمكان.

2 Nadia Ben-Youssef, "Slouching Towards Bandung: Rooting our Decolonised Future in our Anti-Colonial Past," paper presented at the Black-Palestinian Solidarity: Contesting Settler Nationalisms Conference, University of Melbourne, Melbourne, 6-8/11/2019.

3 Ibid.

4 Tony Birch, "Inside the Conflict Zone: Global Colonialism and the Destruction of Country," paper presented at the Black-Palestinian Solidarity: Contesting Settler Nationalisms Conference, University of Melbourne, Melbourne, 6-8/11/2019.

5 Ibid.

عزّز حديث نادية بن يوسف عن مؤتمر باندونغ (1955)[6]، والتهديد الّذي شكله للإمبراطورية، فكرة أنّ إنهاء الاستعمار في المستقبل يتعلق ببناء علاقات تدريجية ومدروسة[7]. إنّ التعرُّف على تواريخ بعضنا البعض والشخصيات البطولية فيها، يخلق إمكانياتٍ للتضامن العابر للحدود، ويُعلّي الأصوات المناهضة للاستعمار، ويُعزز المقاومة الموجودة في جميع الأراضي المستعمرة.

أخذني حديث نادية حول التجمع التاريخي في مؤتمر باندونغ، إلى لحظة اجتمعتْ فيها تسعة وعشرون دولة حديثة الاستقلال، انخرطت في نقاشات مناهضة للاستعمار «شكّلت تهديدًا وجوديًا للإمبراطورية»[8]. وحضرتْ كذلك إلى المؤتمر، دولٌ ما زالت تناضل من أجل التحرر لتطلب تضامن الدول حديثة الاستقلال معها. لقد مثلت مطالب التضامن وإمكانياته المنبثقة عن هذا المؤتمر «رفضًا لفكرة أنّك بحاجة إلى المطالبة بحقوقك من الأقوياء»[9]، مفضلةً تضامن هؤلاء الّذين يقومون بفعل المقاومة كاستراتيجية لتفكيك الإمبراطورية[10].

وُلدتُ في الهند المستقلة، وبعد 47 سنة على الاستقلال في 1947، والّذي جاء عقب انتفاضات مُلتهبة ومُتفرّقة استمرت لمئات السنين ضد الاستعمار في جنوب آسيا. لقد وُلِدتُ في عالم ما بعد استعماريّ، وكان عالمًا مليئًا بآثار وذكريات الإمبراطورية البريطانية، والّتي توسّعت لتقوم بالمراقبة والاحتواء والتجريم والازدراء والتجزئة والإبادة الجماعية للشعوب الأصلية[11]. إنّ المناضلين والمحاربين من أجل الحرية في الهند، والّذين صاروا أعلام المشاعر المناهضة لبريطانيا، بالكاد دخلوا الكتب المدرسية الّتي نجحت في تضمين التاريخ الاستعماري. وبين حين وآخر، يُمكن إيجاد تاريخ هذه المقاومة بمشاهدة فيلم *Rang De Basanti* [12]، أو التشكيك في المناهج الدراسية. لقد أعاد الاحتفاء السينمائي ببهجت سينغ Bhagat Singh، وفيلمه الصادر عام 2006، إشعالَ روح المشاعر المناهضة لبريطانيا عند شباب معظمهم من الطبقة المتوسطة،

6 عقد «مؤتمر باندونغ» في مدينة باندونغ بأندونيسيا، وحضرته وفود 29 دولة أفريقية وآسيوية. استمر المؤتمر لمدة ستة أيام، وكان النواةَ الأولى لنشأة حركة عدم الانحياز. شارك فيه الرئيس المصري جمال عبد الناصر، بالإضافة إلى رئيس الوزراء الهندي جواهر لال نهرو، ورئيس يوغسلافيا جوزيف تيتو، والرئيس السوداني إسماعيل الأزهري، وجبهة التحرير الوطني كمراقب. تبنى المؤتمر مجموعة من القرارات لصالح القضايا العربية ومناهضة للاستعمار.

7 Léopold Lambert, "Spreading the Decolonial Spirit of Bandung from Tunisia to Turtle Island: Recorded in Naarm (Melbourne) with Nadia Ben Youssef on November 8, 2019," *The Funambulist,* no.131, accessed on 23/2/2021, at: http://bit.ly/37FPckc

8 Ibid.

9 Ibid.

10 Ibid.

11 Ben-Youssef.

12 ويعني «إطلها بالزعفران». هو فيلم دراما هندي صدر عام 2006. الفيلم من إخراج وإنتاج وسيناريو راكيش أمبراكاش ميهرا، ومن بطولة عامر خان وسيدهارث نارايانو سهى علي خان وكونال كابور وشرمان جوشي ومادهافان وأتول كولكارني، والممثلة البريطانية أليس پاتن.

دون إرباك الذاكرات الجماعية كثيرًا مثل «أمة عدوانية ما زالت تتخلّص من مخلفات الاستعمار»[13].

أعيش الآن على أراضي الوروندجيري والبونوورنغ من أمم الكولين وأكتبُ عنها. هُنا، أرى أنّ التضامن بين السكان الأصليين أساسيٌ من أجل تفكيك الأنظمة الخبيثة للدولة القومية الاستعمارية. تتحكم هذه الأنظمة بالظلم وتخلقه، بينما تعمل بشكلٍ فعّال على تبييض تاريخ الإبادة الجماعية الّتي تأسست عليها هذه الدولة القومية. إنّ 232 عامًا من إنكار هذا التاريخ، والاستعمار المستمر على هذه الأراضي، يعني أنّنا بحاجة إلى الإصرار على التحرر، وأن نقوم بعملٍ نُموضع فيه أنفسنا بنشاطٍ هنا، بينما نتخيل التضامن العابر للحدود عابرًا للمحيطات أيضًا.

وصفت نادية أفعال إنهاء الاستعمار في أستراليا على أنه مترابطة: «لقد شربت نضالاتنا من الكأس نفسها، وهي مترابطة ببعضها البعض. ما تفعلونه هنا من أجل نضالات السكان الأصليين هو انتصارٌ لنا. قوموا بعملكم هنا. اروو قصصنا حتى نتعرف على بعضنا البعض ونرى كم نحن كثيرون»[14]. جعلني هذا أتأمل أيضًا في أفكاري وأفعالي المناهضة للاستعمار، لفهم أنّه ثمّة «علاقات تدريجية ومدروسة بين النضالات»[15]، والّتي كانت موجودة أصلًا وتستمر في الوجود والتشكّل من أجل المطالبة بالتحرر، ليس فقط من هياكل السلطة التقليدية الّتي أسستها الإمبراطورية، بل من النضالات العديدة أيضًا، من أجل تحقيق العدالة.

كيف يمكننا البدء بتخيل رؤية مُستقبلية لا تُقاوم، دون الرجوع أولًا لفهم أين تمّ تخيُّل وجودنا المناهض للاستعمار أول مرة؟ كيف يمكننا موضعة أنفسنا في لحظةٍ كان فيها ذلك التخيُّل رؤية مستقبلية للثوار السابقين؟ كانت أساليب العنف الّتي تقوم عليها الإمبراطورية مهدَّدَة، وفي بعض الأحيان فُكِّكَت في لحظات المقاومة المناهضة للاستعمار، وباستخدام الطرائق الّتي نتمكّن بها من الاحتفاظ بالذكريات الجماعية لهذا الأمر. يتعيّن علينا التعرف على هذه اللحظات وحملها في فهمنا، لأنّها أساس العمل المناهض للاستعمار الذي نقوم به، وما زال علينا القيام به. كما أنّه يخلقُ مساحات لنا لنتعلم تدريجيًّا وبشكلٍ مدروس، عن تاريخ الأبطال المناهضين للاستعمار، وأن نتبنى هذه الذكريات الجماعية حتى نتمكن من التصدّي بشكلٍ فعّال للازدراء الاستعماري الاستيطاني عبر الحدود في مستقبلنا المُتخيَّل.

وتبقى أساليب الإمبراطورية في الاحتواء والتجريم والمراقبة والازدراء والتجزئة والإبادة الجماعية، جزءًا من مقاومتنا الجماعية، من خلال استعادة النضالات من أجل التحرر[16]. لقد تخيَّل الأبطال المناهضون للاستعمار مستقبلًا يُمكننا فيه الإصرار

13 Sunil Khilnani, "Forgotten Heroes: the True Story of India," *The Guardian*,19/2/2016, accessed on 1/5/2021, at:: https://bit.ly/3dc231g

14 Ben-Youssef.

15 Lambert.

16 Ben-Youssef.

على التحرّر في مكانٍ ما، والشعور بالانتصارات في جميع أنحاء العالم[17]. وتعكس شبكات التضامن العابرة للحدود واستراتيجيات المقاومة كم أنّ حجمنا كبير[18].

لقد غيّر هذا المؤتمر موقفي من المستوطنين والمهاجرين على أراضي الوروندجيري والبونوورنغ غير المتنازل عنها، كما عزّز هذا التضامن العابر للحدود موقفي المناهض للاستعمار، وجعله معقولًا. لقد أكّد المؤتمر الحاجة إلى مواصلة هذا التضامن، من خلال الإصرار على تعلّم التاريخ النضالي لبعضنا البعض، مع الاستمرار في الإصرار على التحرر. كما جعلني أعترف وأتذكر وأقدم احترامي لثيلو ناتشيار Velu Nachiyar، ولاكشمي باي Lakshmi Bai، والعديد من الثوار المناهضين لبريطانيا، والّذين ناضلوا لدخول ذاكرتنا الجماعية، وكذلك للأسلاف والأجداد المُسنّين على أراضي السكان الأصليين المسروقة، والّتي أكتبُ من فوقها، وللنشطاء المناهضين للاستعمار، في الأراضي الّتي شاركتُ في حملاتهم وسأستمر في المُشاركة فيها، من خلال سعيي للتضامن مع النضالات.

ما زلت أحاول تجاوز هذه الفوضى في خطابنا، وجمع التواريخ والأبطال المناهضين للاستعمار وإعادة تخيُّل شكل العمل التضامني على هذه الأرض. ونظرًا لأنّ نقاشات نادية تتقاطع مع أفكاري، فإنّ ما قالته بأنّ «إنهاء الاستعمار يجب أن يحدث في كل مكان، وأنّ التضامن يجب أن يكون عابرًا للحدود الوطنية»[19]، يُذكرني بأنّ التضامن هو تطبيق عملي، وأنّ العمل الّذي أُنجِزَ يجب تذكره. وذكرتني نادية كذلك بالعمل الّذي لا يزال مطلوبًا، لتخيُّل وبناء نظام عالمي جديد.

17 Ibid.

18 Lambert.

19 Ibid.

القسم الثالث

نصوص الملونين حول أوطانٍ بالأبيض والأسود

نساء في قفص، زيت على قماش، 180x120 سم (2021).

تضامن المُقتلعين من أرضهم

عدنية شبلي

على أطراف البلدة، يقف بيتنا وحيدًا وبعيدًا عن بقية البيوت. وأن يكون بيتك أبعد البيوت، فهو حكمًا أبعد ما يمكن عن قاطنيها، وأقلّ ارتباطًا ومعرفةً بما يحدث داخلها، ما يجعل إمكانية العيش في نطاق البيوت وبينها أقرب إلى الاستحالة، مقارنةً مع إمكانية العيش في البرية، الّتي تحيط بك من كل صوب، في رحاب التلال وحول الوادي الهزيل.

كنتُ أتّجه إلى البلدة للذهاب إلى المدرسة فقط، حيث أستمرُّ في الجلوس فوق المقعد ذاته طيلة النهار يوميًّا، بانتظار الاستراحات بين الحصص المدرسية، ثم انتهاء اليوم الدراسي أخيرًا، لأتّجه عائدةً فوق طريق تتلاشى البيوت من عليه تدريجيًّا، وتبتعدُ حياة البلدة التي يسودها نوعٌ من النظام والإجبار، إلى أن أصل إلى بيتي على جهة اليسار. وبينما تقفُ البرية على اليمين بكل ما تحويه من عزلة وحرية، وبالتحديد في أسفل التلة حيث يجري الوادي، توجد على ضفته الأخرى قطعة أرض صغيرة مثلثة الشكل، تضمُّ أكثر اللّحظات حميميةً وسعادةً عشتها في طفولتي، قبل أن تختفي فجأة وبالكامل.

في ذلك المثلث الصغير، عرفتُ أول تعبير عن الحب بين والديّ، حيث يحرثون أرضهم سويةً، ليزرعا بعض الخضرة الّتي تشربُ من مياه الوادي، بينما أتقافزُ قريبًا منهم مع الضفادع الّتي تنتشر على امتداد ضفة الوادي. ثم بعد فترة وجيزة، طُرد والديّ من هذا المثلث الصغير. تبدو هذه الحادثة أقلّ وضوحًا بالنسبة لي، ولا أعرف إن كنتُ قد شهدتها فعلًا، أم أنّني سمعتُ بها فحسب، أو تخيّلتها بينما لم تحدث البتّة. دوريات حماية الطبيعة الإسرائيلية ستظهر فجأة وتقلع ما زرع والديّ من خضرة، ثم ستدفعهما خارج المثلث بالقوة. سيُقاوم والداي، ويقولان بأنّ هذه أرضنا أبًا عن جد، لكنّ أفراد الدورية سيستمرون بدفعهما خارجًا، ولن يعودا بعد ذلك إلى المثلث الصغير للاعتناء به، ولا سننعم بعدها بالحميمية والسكينة الّتي كنا نشعر بها ثلاثتنا آنذاك، لأسبابٍ لا تتعلق به البتة ربما.

بدوري لن أوافق، ولن أنصاع إلى الأوامر. سأعودُ يومًا إلى ذلك المثلث الصغير، وأُحاول جنيَ ثمار الخضرة الّتي اقتُلِعَت منذ فترة طويلة، وسأزرعُ أخرى بقدر ما أستطيع التخيُّل. كما سأعتني بالعشب البري الكثيف وأتأمّله، ثم أرتِّبُ حجارة كثيرة كل يوم من جديد، في خطوط وأشكال هندسية مُختلفة. سأُقسِّم أرض المثلث إلى غرفٍ في بيتي في البرية، حيث سأجلس داخله وحيدةً، وأنظر إلى بيت والديّ والبيوت الأخرى، وحتى المدرسة، حيث تقف جميعها في خط طويل على خاصرة الجبل المُنتصب قريبًا مني جدًا.

من هناك؛ من داخل مثلث العزلة الصغير ذاك، ستنمو علاقتي ببقية الأماكن الّتي سأسكنها، والناس الّذين سأحيا بينهم ومعهم، على أُسُس يحكمها الخيال، وإن حدث وتسرّب إليها ما هو واقعي، سأعملُ جاهدةً على تحريفه ولو قليلًا، فلا يمكن لأحدٍ طردك ممّا هو خيالي وغير خاضع لشروطِ الواقع.

ثم بعد أربعة عقود، تأتي أخيرًا شروط الخيال، لتفرض نفسها على الواقع. وعلى مدار ثلاثة أيام من خريف عام 2019، يقوم مناضل عظيم يُدعى مروندو، ما برح يُقاوم استيلاء السلطات الأسترالية على أرضه، بالاستماعِ إلى سلسلة الطرد الأبدية الّتي يحياها كل فلسطيني. وهكذا في نهاية اليوم الثالث، يفتح مروندو بوابة أرضه الّتي تمتد على شكل مثلث واسع في الجنوب-الغربي من أستراليا،ويدعو الفلسطينيين إلى البقاء فيها، بعيدًا عن أيّ تهديد بالاقتلاع.

مرحبًا يا أسلافي!

أليكسيس رايت

مرحبًا يا أسلافي، هل تتحدثون إلي؟ إنّه يوم هذه الأرض، وكل الأيام لها. أعرفُ ذلك، لكن ألا تعرفون؟ حلّ السادس والعشرين من كانون الثاني/ يناير مرةً أخرى؛ يوم الرفاق البيض، يوم يحتفل فيه البعض، ويبكي آخرون. هل تسمعون الأرض؟ إنه صوت ذكريات شعبها النابض. هل سمع الجميع؟ هذه النبضات، هي لكل قلوبنا المكسورة، المفطورة على العائلات المفقودة في الحرب الجارية، وعلى الأطفال الّذين ما فتئنا نفقدهم.

إنها ذكريات كبيرة ومؤثِّرة، حيث تبكي الأرواح معرفتها العميقة بأصحاب الأرض الحقيقيين. بمَ نحتفل؟ بدولةٍ سُرِقَت؟ بدولةٍ كُسرَت؟ هل نبحث عن كل أنواع الشرور؟ استغرق الأمر عشرات آلاف السنين لنتعلم كيفَ نُدير الأرض بطريقةٍ صحيحة، كيف ندير المياه، والسماوات، والنجوم. لستُ منزعجةً كثيرًا، لأنّي الأرض.

إنّه يوم هذه الأرض، وكل الأيام لها. على كل حال، أسموه ما شئتم، يوم أستراليا الوطني أو غيره؟ يوم للثرثرة؟ تفاهة كل هذا اليوم لا تعنيني في شيء. أخبروني أنتم، ما الجيِّد حِيال اللّاشيء؟ أقل من جزء من الثانية، في فضاء الوقت. يوم واحد! لِمَ؟ يوم واحد ليس بشيءٍ، بالنسبة للوقت الّذي قضاه أسلافي هُنا، يعتنون بهذه الأرض التي تحكمها الأعراف، ليُحافظوا عليها قويةً يومًا بعد يوم. هل ترغب في تجاوز ذلك أولًا؟ بهذا يكون التفكير الحقيقي في السيادة. الملكية الحقيقية تأتي مع مسؤولياتها؛ أي أن ترعاها وتحترمها. وأشياء من هذا القبيل. البقاء يُمثّل روابط غير مُنقطعة، ولا يُمكن أن تُقطَع؛ جذور عميقة، أساس عميق.

إنّه يوم هذه الأرض، وكل الأيام لها. أنا أتحدث عن تجربة سحيقة. كيف يُمكننا أن نُنمي جذور ضاربة مثلها؟ ليس مثل قصاصات ورق صُنعتِ بالأمس، قبل ثانية. واهي وزائل هذا النوع من الأمور، حين تقول أنّك تملك أحقيةً في الأرض بدلًا من الرفاق السُود، ظانًا أنّك بلغت القمة. لا قيمة لما فعلت، لستَ مالكًا. قصاصةُ ورقٍ تخزُ القلبَ، وتُغطي السطح بِسُمٍّ فقط. لن تقوى قصاصتك على اختراق القانون العميق في رأسي. ينهار هذا النوع من الأكاذيب في نهاية المطاف، يتآكل لسوء حظكم، مثل

الرياح العاصفة المتدفقة من منزل حُكم أيّ رفيق أبيض، والمُسمّى حكومة. هذا أمر صغير، له شأن كبير. تعصف الريح بالأوراق بعيدًا، لا من أوراق في مهب الريح.

أتودون معرفة من يتحدث؟ أنا أتحدث! ليس لديّ مشكلة في الاعتراف، لأنّني الأرض. لا ورقة ملكية لديّ. محض عجوز يتحدث بالحقيقة، وهذا كل ما في الأمر. حكيم البلاد، رجل روحانيٌ يتداول قصص القانون منذ زمن سحيق ويعيش في مؤخرة عقولكم. لكنّه يعيش الآن في سلة قمامة على عجلات، محشور بين القمامة وبين أكوام النفايات، بين أفكار قبيحة، وعرق كَثيف يتسلل إلى كل مكان مثل القمل. لا تقلق، فقذارات مثل هذه تجف على بشرتي فقط، وتلتصق مثل الغراء الساخن في ذهني، لكن يُمكنني الانتظار إلى الأبد. سيأتي شخصٌ ما ويجمع القمامة في النهاية، وستُفرزُ في كومة كبيرة واحدة في المكب.

مرحبًا يا أسلافي، لاحظتُ أثناء حديثي كيف اكتسبتم قليلًا من الوزنِ هذا العام. تبدون رائعين بينما تتمايلون تحت السماء عند الغروب. فكّرتُ فيما إذا كنت أحلم بأنّني أنتم، أم أنّ غيوم العاصفة تزداد ثُقلًا في ذهني أثناء جلوسي في أراضي بلدي الروحي، الّذي يتحول إلى سلة قمامة بعجلاتٍ، ويقول الرفيق الأبيض أنّها ليست ملكي بعد الآن. كيف تبدون؟ كيف يبدو عقلي الروحي وعقلكم! كيف سأصف أحلام الأسلاف داخل روح أغنية الرجل العجوز، والمرأة العجوز، والطفل الصغير الساكن والخائف من تسلق النايلون الأبيض الّذي يتكاثر فوق الأرض خانقًا الحياة فيها، وفي الطفل غير البالغ وعقلهم، لقد خسروا الأحلام في حضرة نباح الكلاب المتواصل.

أراقب ظهوركم الغامض على طول خط الأفق، وأراكم كيف تفكرون بينما تشحنون أنفسكم عبر ذاكرة كل أفكاري. أرى أنّكم أتيتم إلى الحفلة المجيدة هذا العام مُرتدين أشياءً مختلفة، مُنتحلين صفة جسد زوبعة بخلايا فائقة، وداخل حرارة قلبكم هالةٌ تلقي اللّهب على المشهد. تبدون كبارًا جدًا، مُمثلين جيّدين للغاية، تزأرون نارًا ضارمة عبر البلاد، بكل هذه العظمة، بحضورٍ ظاهر، وكله رعد وصخب. ربما تبحثون عن معنى، أو انتقام أو عقاب، أو مكانٍ يُخبئ قصتكم بأمان، وسري داخل عقول المُسنين الحافظين له، أو من حيث سُرقتْ من الأرض، أو حيث ترقدُ في قبور عائلة سُلِبَتْ قدرتها على الاهتمام بالأرض، أم أنّكم تبحثون عن أكاذيب مُخبأة على قصاصة من الورق في مكان ما، مقفلة في خزانة شخص ما.

تبدون متطرفين، وعلى عجلة من أمركم. قال علماء البيئة إنّ العواصف الغريبة المتكررة هي نتيجة لتغير المناخ، لكنّني أعتقد أنّ ظهوركم كان نتيجةً لتلك القطع الصغيرة من الورق الّتي تحكي الأكاذيب حول ملكية الأرض لأشخاص لا يعرفون قوتك. أفترضُ أنّ قصة الأسلاف يجب أن تبدو بالطريقة الّتي قرّرتُم أنّ تُظهروا بها أنفسكم، فقد كُشف عن قصتكم القوية للألفية على أشدّها.

لكنكم تصبحون أكثر ضخامةً، وتظهرون في الأفق خارجين عن السيطرة على الأرض، وتتحكمون في عقلي. كلما ضغطتم أكثر، لا أتمكن من العثور على إجابةٍ لِما

يجب أن يظلّ تحت السيطرة. أين كل حفظة القصة الصحيحة؟ من سيغني لكم كل القصة المقدسة لكيلا تشعرون بالوحدة بعد الآن، هل بقي منهم أحد؟ أيّ أحد؟ أيّ شخص في حفلة عيد الميلاد؟

يا أسلافي، أنتم تُفجّرون سلة المهملات. تنتشر المواد البلاستيكية في كل مكان، وتتطاير مع النوارس في العاصفة، وقد رُميت بين حفاضات الكيمبي القذرة، وصواني اللّحم المصنوعة من البوليسترين، وعلب البيرة الفارغة، وكلها بالآلاف تدور في الغلاف الجوي. انطلقت الأدخنة السامة والحمضية. تهبُّ رياح قُويّة وتُسقِطُ قمم الأشجار وترميها لمسافة كيلومترات، وتضرب جذوع الأشجار في الأرض. سبقَ سحب الرماد جدارٌ من المياه الطينية المتدفقة فوق الأرض، جارفةً الماشية والأغنام مع الشاحنات والسيارات عبر المنازل المغمورة بالمياه. لستُ إلّا محض رجل عجوز ضعيف البصر، لكنّي فهمتُ الصورة. أتّفق معكم.

إنّه يوم هذه الأرض، وكل الأيام لها. كما تعلمون، وربما أكونُ مخطئةً هنا، لكنّني أعتقد أنكم تعون قليلًا ما يجري هنا. أرى الطريقة الّتي تتحدثون بها عن السيادة الحقيقية عندما تُظهرون لغة الأرض، وفي الطريقة الّتي بعثتم فيها بعض القصص بسرعة من عالم الأسلاف. ثمة ثعالبٌ عجوزة نحيفة جائعة تتناول طعام مكَة[1]، مع القطيع على مائدة إفطار مبكرة في يوم أستراليا الوطني. وثمّة نملٌ يعمل في التراب، تحت أجنحة فراشة ميتة، آخذًا إيّاها في رحلة طويلة، يبدو أنّها ستستغرق إلى الأبد؛ رحلة رائعة مثل السفر حول العالم إلى مقبرة الفراشات.

1 يُشار إلى مطاعم ماكدونالدز في أستراليا بـ «طعام مكة».

نحنُ[1]

آجا مونيه

لسنوات والشمس تُحبّنا
العزلة على معصم أشجار الماغنوليا
معلقةٌ أو مشنوقة
على دندنة مفعمة بالحرية والعدالة للجميع، باستثناء شعب البلوز
الذين يسكنون الدُخان على مفترق طريق.
ما حدثَ فعلًا يومها
أنّ روبرت جونسن أحضر غيثارته
ليواجه كل ألوان الشرور.
اعزفْ بالسحر
وتَجَهَّز له
ليعزفَ معك.

***

البعض يخشى الموت
لكن آخرين يعرفونه جيّدًا.
احترس من الشيطان
لا تَبِعْ روحك نكايةً في الموت
جميعنا سنمضي يومًا ما.

1 مستوحاة من محمود درويش.

الموت فردٌ من العائلة
تسمع عنه ولا تلتقيه قَطْ
إلا حين يدعوك.

***

بعضُ الأمور خُلقت لتُحكى
وبعضها يبقى حبيس لحظته
واجهتُ أمورًا أسوأ من أن أُنسى.
مع أنّك تسميني امرأة لا تعرفها
إلا أنني ابنة لأخوتي
ابنة التضحيات المسلوبة
أسرار الحياة الآخرة
أسرابٌ من الأضواء الدُرّية.
بشجاعةٍ أدعوكَ الآن إلى جانبي
لنمضي قُدمًا.
لا تمشِ لأيّ سبب دون الحُب
قاسيٌ أيّ قانون ينحرف عن ذلك
ورثٌ.

***

دع كلماتك تهدئ الروعَ
ولا تأبه بما كان مكتوبًا
سنُعيد كتابته
فنحنُ لا نعرف سوى فكرة الحُريّة.
إرثنا الارتقاء ببعضنا البعض
نصير زوبعةً
أو هُلبًا بين خصلات الشعر
أو رمادًا لأنفُس تستعرُّ بصمتٍ

فماذا تكون أرضنا لنرميها ونقلبها
سوى أجسادنا
الكثبانُ على صدورنا
السيقانُ على كل الطرقات
والسواعد في مروجِ الزهور المخملية.

***

ننجو ونندم على النجاة
نحن أبناء النهاية
نرى النهاية أسيجةً وأسلاكًا شائكة وجدران صخرية وبوابات معدنية
كلها، لا تُخفي الحقيقة
لا يمكن للأمم تَنَكُّر وجودنا
هُنا في وعاء العظم والعرق هذا.
وبعد العبور
من رحم أمٍ سوداء
ومن كل ما مرّت بهِ
والمحاولات الغادرة لقتلنا.

***

لا تَخف ممّا بقي مني فيك
وشاحٌ من الانتظار يتوق ليُشعَر بهِ
المُعاناة هي المُعاناة.
تتركُ الرؤى الجامحة الأبواب مفتوحة خلفها
قُدامى المُحاربين قد عادوا من القتال
تتدلى الأذرع المصابة قرب الصدور
أوفياءَ
إمّا للظفرِ أو الهزيمة.

***

أنا وطن داخل وطن
اعتزل الراحة لبعض الوقت
استيقظ وغنِّ يا حبيبي
سننهمر في الشوارعِ مثل المطر
وفوق سطوح كل أولئك الّذين يصنعون القوانين
ليشيّدوا الغياب بيننا
غريبةٌ روح من يحاول فعل ذلك لامتلاك الناس
أيُّ ذنب يُلاحق القلوب؟
والطيور والأسماك والماشية؟
وأرض كل ما هو مقدّس؟

***

أن تكبر يعني أن تقاوم
أن نتداوى بكل الأشكال
علينا السعي في الأرض قبل استحقاقها
ما يحتمله الجسد هو الجسد نفسه
عندما غادرنا أرحام أمهاتنا
لم نأخذ معنا أرضًا
سلاح ابتسامتها وإكسير حُبّها
كل ما أخذناه.

أرملة زائفة

سارة م. صالح

نحن أرضٌ بلا شعب
هياكلُ أشجار الزيتون
برتقالٌ بخدودٍ غائرة
عاديون وفضوليون
نسجدُ في الشوارع.
نحن تركة الأسلاف ومفاتيحهم المُوصدة
زعيق العربات
عندما تجتاز اختبارات العرس والميلاد والجنازة.

***

أضرِموا حرائقَ في الثانية صباحًا حتى نلعقها
ونذهب بعيدًا مع آبائنا معصوبي الأعين
لا يمكن أن يكونوا آباءً على كل حال.
نحن توراتيون
نحن أبناء الجليل
مُجيدو نصف اللُّغات
والمُمتلئون بفجواتٍ سُمّاقية.

***

نحجّ بقداسةٍ أكثر مما أردنا
لسنا إلّا جوانب أخرى
والحقيقة تجدُ طريقها إلينا لتطهِّرنا.
ننتظر لساعات بلباسنا الداخلي
بينما يراهنون: من سيكون الأصعب مراسًا بيننا.
هنا الرصيف حيث أطلقوا النار علينا
وحيث ارتعدت دواخلنا مثل فحمٍ مُشتعل
وحيث أقنعتنا اعترافاتنا بالمشاهدة
لتستمتع بأفلام يوم الأحد
قبل أن تؤرشَف أعمالنا مرةً أخرى.

***

تروي القصة الرسمية حكاية سكين كلّلَت كفها مثل حبات المسبحة
فلن يكون للدفن طقوس
وتُظهر أبنائنا وبناتنا على أنهم وحوش.
نحن زيت التربنتين والحزن الجائش.
يشيدُ العالم بأنّها خطة سلام!
اليوم، يخلق المجند البالغ من العمر21 عامًا
إلهًا مختلفًا لكل فعلٍ بذيء
ثمةَ إله لمثل هذه البذاءات.
يقرر المحتلون بعدم الإدانة
يقولون إنّهم سعداء:
«كان الجندي يؤدي واجبه. تؤكد مقاطع الفيديو هذا أيضًا».
واللهِ، يُقسم الجيران بأنّهما سمعوها تصرخ:
«أنا أُربّي جسدًا عربيًا جديدًا».
لنجرجر جسدها عبر خمسة عقود من الخنق الكولونيالي

يحتاجوننا لنتذكر
ها نحن نشهدُ
نهدّئ الأموات ونُخلّد شارع الشهداء
بالاسم نفسهِ.
هكذا نُبقيه لنا.

***

من نحن، سوى تأبين أطفالنا لنا!
تهزُ جفوني قطعة قماش شطرنجية
وهم صبارٌ شوكيّ
يرفعون سلاحهم حين يروني
ويهمسون: «عاهرة» ويبصقون
ونحن تُخلع أصابعنا وتنفك.
في يوم القمامة
تتطاير قمامتهم وفضلاتهم فوقنا.
تقول أمي:
«هذه الطريقة الوحيدة الّتي يريدون فيها معرفة العرب».
ليس هناك سببٌ وجيه لإنهاء الفصل العنصري
لن نسمح لهم بدخول باصاتنا وأسواقنا ومدارسنا ومصانعنا ومسارحنا واحتفالاتنا.
من غيرنا بنى كل شيء في هذه الدولة؟

***

أبي واجهةٌ غاضبة
ساقاه مشدودتان إثر اغتصاب الدولة الشرجي له
قريبًا سنضربهم بلا رحمة، ونأكل في خُلدهم.
نخسرُ ونخسر
لكننا نتفشّى في المدينة
مثل العدوى.

مسألة حيوات

طوني بيرتش

انحسر القتل
ليحصوا الجثث
ويسمّونها بحسب التواريخ والأيام
في موكبٍ بالشوارع المُبتلاة.

***

مشهدٌ حزين يملأُ الأخبار
حياتك ليست حياة، ولا أيّ حياة
حياة أيًا منا تهمُّ؟
عناوين فارغة، لا تذرف الدموع
ولا تنقل الدقات الأخيرة لقلبٍ حيّ.
امرأة سوداء نائمة في قطار ليست خبرًا
وهي كذلك خبرٌ جيد
إلى أن يأتي يومٌ يصير فيه الموت حقيقة.

***

بينما يقصر طول ظلّ الشباب على الدّوام
بين البحر والطغيان
ويُعمى بأشعة الشمس والقمر
يأتي شهيدٌ من أجل سعادتنا البعيدة.

يضم الكِتاب مجموعة من التأمُّلات التي تتناول البنية التحتية التي تُحافظ على بقاء الاستعمار الاستيطاني بمُختلف تجليّاته الجيوسياسية: وحشية الشرطة والاحتجاز، والعمارة العسكرية، ووفيات السود في الحجز، والنكبة المستمرة التي يعيشها الفلسطينيون، وتدمير البيئة، وتزييف الحقائق وادعاء المصالحة. تتساءل فصول هذا الكِتاب: كيف يُمكننا الإصلاح؟ كيف يُمكننا مُقاومة هذه القوى القمعية؟ ما هو دور التضامن في هذه العملية؟ يقوم المُفكّرون الأصليون في هذا الكتاب بالتأمُّل في هذه الأسئلة للنظر في التضامن العابر للحدود بوصفها مهمّة معرفية للتعبير عن نضالاتنا وتنظيم مقاومتنا وتخيُّل مُستقبلنا.

آجا مونيه
أليكسيس رايت
إيرين واتسون
سارة م. صالح
روبرت واريور

ساري زنانيري
سباندانا بيلاريسيتي
سوجيث زافيير
سيلفيا مكادم
طوني بيرتش
عدنيه شبلي

عمر زهزه
مجد أبو عامر
ميكايلا سحار
يارا نصّار
يوجينا فلن

تقديم
حميد دباشي
تحرير
سوزانا هينتي وغاري فولي

بدعم من:
مؤسسة عبد المحسن القطان
A M QATTAN FOUNDATION

مجلة 28